

الفصل الثانى
المدارس الزهديّة
فى
صدر الإسلام

المدارس الزهدية في صدر الإسلام

اتسعت تشعبات جامعة الزهد الأولى في الأمصار والأقطار، وبدأت مدارس الزهد المنتسبة إليها تتخذ طريقها إلى القلوب لتعمل فيها بما يؤهلها للسلامة حتى تعود إلى ربها، دون كدر يشوبها، أو مرض يؤرقها ويعكر صفوها، وسرعان ما رن صوتها في ضمير الناس، وأخذت بأيديهم إلى النبع الروحي الصافي الذي لو نهلوا منه فلن يظمؤوا أبداً، ولا يرتفعوا من دنيا الماديات إلى عوالم السعادة الأبدية، ولما أدرك السادة الأوائل قيمة تلك المدارس من فتح البصائر والأفتدة لاستقبال نفحات ربها، ومعرفة سبل اللذة الحقة؛ لذة النظر إلى وجه الله والسعادة بالقرب منه، والاستبشار بإشراق أنوار المعارف في عين ذواتهم؛ بادروا وقد شدوا رحالهم إليها .

وراحت الأمصار المختلفة تظهر مدارسها، فالمدينة تصدرت الصف الأول بمدرستها، وراح كل قطر ومصر بعلمائه ليبدى في مدرسته ما يعبر به عن آرائه ومناهجه وسلوكه وزهده، كمكة والكوفة، والبصرة، والشام وغيرها من الأقطار. وسوف نلقى نظرة على هذه الأمصار تباعاً، بادئين بالمدينة؛ لنستطلع أحوالها وأعمال القلوب فيها .

أولاً : مدرسة المدينة المنورة

كان مجتمع المدينة المنورة مهيباً لجو من الحياة الروحية الراقية، فلا زالت المدينة مليئة بأنفاس الزهاد الأوائل، ولا زال صوت الخلفاء الثلاثة الأول يدوى فى جنباتها وهزة الورع تعلوه .

وقد نأت المدينة المنورة بشيوخها بعيداً عن الخوض فى الشقاق والاختلاف والمنازعات والتحولات السياسية ذات الأثر العميق، كما حجبت عن الأفكار والاتجاهات الغربية المغالية كالتشيع وغيره .

وكان سيدنا عبد الله بن عمر أصدق تعبير عن الحركة العلمية والتربية الزهدية، فقد نأى عن الفتن وتفرغ للدراسة والبحث بعيداً عن صليل السيوف ، وضجيج المعارك والفتن .

وصحبه ﷺ التابعى الزاهد سعيد بن المسيب، وكان الاثنان من رجال الزهد والعبادة فى المدينة بلا منازع .

١ - عبد الله بن عمر

يتسنم^(١) ذروة الزهد :

اشتهرت المدينة المنورة بعبد الله بن عمر كأحد عبادها وزهادها المرموقين بين جيله من الصحابة والحق أن مكانته لم تكن مستمدة من حيث أبيه العظيم عمر بن الخطاب، ولكن من مقومات شخصيته التى تفرد بها بين غيره من الصحابة المقيمين بالمدينة، فإذا رآه إنسان أدرك أن به شيئاً من اتباعه آثار رسول الله ﷺ^(٢) .

(١) يتسنم ذروة : يرتقى، وذروة الشئ : أعلاه .

(٢) أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٦٦، د . مصطفى حلمي، الزهاد الأوائل، ص ٧٦

وقد ولد ﷺ سنة ثلاث من المبعث النبوى، وهاجر وهو ابن عشر سنين، ومات سنة أربعة وثمانين هجرية، وقد أسلم مع أبيه، ويقال : إنه لم يشهد بدرًا لصغر سنه ^(١).

وقد اقتفى سيدنا عبد الله آثار رسول الله ﷺ فى كل شىء، وحافظ على ملامح الحياة الأولى التى تمنّاها المسلمون بعد وفاة النبى ﷺ، وقد وصفته أم المؤمنين السيدة عائشة بقولها : ما رأيت أحدًا أشبه بأصحاب رسول الله ﷺ الذين دفنوا فى النمار ^(٢) من عبد الله بن عمر ^(٣).

واغرورقت عينا ابن عمر بالدموع، ومار صدره بلوعة الشوق، واحتلت تفكيره صور الأحبة فراح يتقمص شخصياتهم، ويتلمس تصرفاتهم، فجاءه رجل وقال : يا ابن عمر، أجعل لك جوارش ^(٤) ؟

قال : وأى شىء الجوارش ؟

قال : شىء إذا كظك ^(٥) الطعام فأصبت منه سهل عيشك.

فقال ابن عمر : ما شبت من طعام منذ أربعة أشهر، وما ذاك إلا أن أكون له واجدًا ولكنى عهدت قومًا يشبعون مرة ويمجوعون مرة ^(٦).

ومن هذه الكلمات الموجزة تبدو معالم العبرة، وتظهر آثار التربية النبوية لا ابن عمر .

(١) الإمام ابن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٦ ص ١٦٧ بتصرف .
(٢) جمع نمرة، وهى الشملة . تريد فقراء المهاجرين الذين ماتوا قبل اتساع الدنيا ، فدفنوا فى نهارهم وشملهم .

(٣) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٩٤ .

(٤) الجوارش: دواء مركب يقوى المعدة ويضمم الطعام .

(٥) كظك : أى أثقلك .

(٦) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٨٩ .

وَلِمَ لَا ؟ ! وهو الذى أخذ الحكم على الدنيا من فى رسول الله ﷺ ؟ ! حين أخذ بمناكبها وقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » حتى تكون فيه الحذر والخشية فقال : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »^(١).

بهذا جنح ابن عمر بالنفس إلى السلم ، فإذا وصلت النفس إلى هذه الحال استغنت بها عن التطاول إلى الشهوات التى توجب اقتحام الحدود المسخوطة ، والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة ، فإن فقرها إلى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب ، وأيضاً فتقاعدها عن المطلوب بينهما ، موجب لفقرها إلى الشهوات ، فكل منهما موجب للآخر^(٢).

إن ابن عمر لم يقعد عن المطلوب أبداً ، ولم يفتقر إلى شهواته ، إنه انتهى يوماً حوتاً فصنع له ، فلما وضع بين يديه جاء سائل فقال : أعطوه الحوت .

فقالت امرأته : نعطيه درهماً فهو أنفع له من هذا ، واقض أنت شهوتك

منه .

فقال : شهوتى ما أريد^(٣) ، أى : شهوتى أن أعطى السائل الحوت .

بهذا الترفع اتسم منهج ابن عمر فى سلوكه ، إنه كان لا يعجبه شىء من ماله إلا أخرج منه لله ﷻ ، وربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألف درهم ،

(١) رواه البخارى ، فتح البارى ، شرح صحيح البخارى ، ج ١١ ص ٦٤١٦ .

(٢) الإمام ابن قيم الجوزية ، طريق المجرتين وباب السعادتين ، ص ٥٣١ ، دار الطباعة المحمدية ، طبعة ثانية سنة ١٣٩٩ هـ - سنة ١٩٧٩ م .

(٣) ابن الجوزى ، صفة الصفوة ، ج ١ ص ١٨٣ .

الفصل الثانی : المدارس الزهدية في صدر الإسلام ۱۰۹
وأعطاه مولاه ابن عامر مرتين ثلاثين ألفاً.

فقال ابن عمر : إني أخاف أن تفتني دراهم ابن عامر، يا ابن عامر : اذهب فأنت حر، وكان يمكث الشهر لا يذوق فيه مزعة لحم، وأتته اثنان وعشرون ألف دينار في مجلس فلم يقم حتى فرقها ﷺ .

وقد صدق سيدنا جابر بن عبد الله حين قال : ما رأينا أحداً إلا قد مالت به الدنيا، أو مال بها، إلا عبد الله بن عمر^(١) .

هذه حال ابن عمر مع الدنيا وشهواتها، وقد أقام منهج مدرسته على هذا الأساس ، زهد ومعرفة، وكثرت توجيهاته لطلابه في هذا الطريق .

فعن مجاهد قال : كنت أمشي مع ابن عمر، فمر على خربة، فقال : قل يا خربة ما فعل أهلك؟ فقلت: يا خربة ما فعل أهلك؟، قال ابن عمر : ذهبوا وبقيت أعمالهم^(٢) .

إن ابن عمر جعل تلميذه (مجاهداً) يردد خلفه بالموعظة حتى يعيش آثارها في نفسه، وهكذا تتباعت العظات للطلاب من ابن عمر، يقول نافع مولى ابن عمر : ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى : ﴿وَأِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة] ثم يقول : إن هذا لإحصاء شديد .

من هذه الحال انبثقت مدرسة المدينة واتسعت دائرتها، وتوطدت فكرتها على الزهد والعلم.

(١) المصدر السابق، ص ١٨٣ بتصرف .

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٩٢ .

ومن عظيم المنن أن رائدها (ابن عمر) كان من الكثيرين في الرواية عن النبي ﷺ ، وقد روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبى ذر ، ومعاذ ، وعائشة ، وغيرهم من الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين ^(١).

(١) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٦ ص ١٦٧ .

٢ - سعيد بن المسيب فى صحبة ابن عمر رضى الله عنهما :

ولد (ابن المسيب) لستين خلتا من خلافة عمر بن الخطاب، وكان يكنى بأبى محمد^(١)، وكان ابن المسيب من كبار الرواد وأبرزهم فى مدرسة المدينة، ويُعد من كبار التابعين .

وقد ازدادت صلته بابن عمر واشتدت ملازمته له، وصحبته إياه، حتى حكى ابن المسيب الكثير من مآثر ابن عمر، فهو القائل عنه : لو كنت شاهدًا لرجل من أهل العلم أنه من أهل الجنة لشهدت لعبد الله بن عمر^(٢) .

وكان ابن المسيب صاحب عبادة، وجماعة، وعفة، وقناعة وكان كاسمه بالطاعات سعيدًا، وعن المعاصى والجهالات بعيدًا.

قال له بكر بن خنيس - وقد رأى أقوامًا يصلون ويتعبدون : يا أبا محمد، ألا تتعبد مع هؤلاء القوم ؟ .

فقال ابن المسيب : يا بن أخى ، إنها ليست بعبادة .

فقال بكر : فما التعبد يا أبا محمد ؟

قال : التفكير فى أمر الله ، والورع عن محارم الله، وأداء فرائض الله تعالى^(٣) .

وكان ابن المسيب يحافظ على الفرائض، ملتزمًا بالشعائر والأذكار، وقد قال فى ذلك : ما أذن المؤذن ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد^(٤) .

إن الإيمان بالله تعالى هو الذى كان يشده إلى عالم روحه حيث العبادة ،

(١) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢) صفة الصفوة، ج ١ ص ١٨٣ .

(٣، ٤) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٦٤ .

ويعينه على مغالبة الكسل وأوصاف الجسد، ومقاومة الشهوات الصارخة فيه .

ويبدو أن ابن المسيب كان يحاول أن يسير على نهج صاحبه في حياته الزهدية وموقفه من المال، وقيامه أكثر الليل، وقد دفعه ذلك إلى قوله يوم أن مات ابن عمر : مات ابن عمر يوم مات، وما من الدنيا أحد أحب أن ألقى الله بمثل عمله منه ^(١). وقد دُعي ابن المسيب إلى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها، فقال : لا حاجة لي فيها ^(٢) .

وكان سعيد يعمل في التجارة، ويلبس البسيط من الثياب ، ولا يتزين إلا في العيدين، وقد رفض أخذ العطاء، ونظر إلى المال كوسيلة ليصل رحمه، ويؤدي منه الحقوق، ويعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار ^(٣). وقد قال في ذلك : لا خير فيمن لا يحب هذا المال يصل به رحمه، ويؤدي به أمانته، ويستغنى به عن خلق ربه ^(٤) .

فالمال لم يتعد عن كونه وسيلة وليس غاية تطمح إليها نفس ابن المسيب ؛ لأن موقفه من الدنيا ثابت لا يتغير، وقد أظهره حين قال : إن الدنيا نذلة وهى إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها بغير حقها، وطلبها بغير وجهها، ووضعها في غير سبيلها ^(٥)، وقد بلغ ورعه عليه السلام إلى أنه لم يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ولا نفعا، حتى الأشربة كانت تعرض عليه فلا يشرب منها ^(٦)، وكان عليه السلام شديد الخوف من الله، على وعى بالحرمان ملتفتاً إلى روحه وإلى

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ١٠٤ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٦٦ .

(٣) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ١٠١ .

(٤) حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٧٠ .

(٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها .

(٦) أبو نعيم الأصبهاني، الحلية، ج ٢ ص ١٦٧ .

مطالبها التي تحفظ عليها إشراقها من الطاعات، وفي تعبير شديد اللهجة قال في ذلك :

ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله ﷻ، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرة من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله .

وكان ابن المسيب يكثر من قوله : اللهم سلم سلم^(١)، من شدة خوفه من الله، وغياب عقله في المصير، وذهاب قلبه في الرهبة والخشية .

وقد وضع ابن المسيب شخصية الإنسانية في موضعها حين قال : إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ... من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله^(٢) .

على هذا المسلك في درب الزاهدين سار الإمام ابن المسيب، مهتمًا بالعلم والسلوك، فقد أسند عن عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وعلى ، وسعد بن أبي وقاص وأبى بن كعب، وعمار بن ياسر، ومعاذ بن جبل ، وابن عمر، وأبى الدرداء، وأنس بن مالك، وصهيب ، وجابر بن عبد الله، وأبى سعيد الخدرى، وعائشة وأم سلمة ، وآخرين .

ومات ﷺ بالمدينة المنورة وهو ابن أربع وثمانين سنة^(٣) ، ﷺ وجمعنا وإياه في صحبة الحبيب ﷺ يوم القيامة .

(١) نفس التخريج السابق .

(٢، ٣) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٢٩١ .

ثانيا : مدرسة الزهد بمكة المكرمة

سارت مدرسة مكة الزهدية على درب السابقين لتجمع بين العلم والحياة الروحية، وبين علم الظاهر وعلم البواطن والقلوب، امتداداً واستقاءً من الجامعة الأولى بقيادة رسول الله ﷺ، وهذا الاستقاء هو ميزان كل مدرسة، وميزان كل شخصية.

وكما قال الإمام أحمد بن محيى الجزائرى :

واعلم أن ميزان الرجال عندنا هو المتابعة لسيد الوجود ﷺ قولاً وعملاً، والتخلق بأخلاقه الكريمة التى هى عنوان كمال الإنسان وشرفه وعلى عراقه أصله، فإذا طاب أصل المرء طابت فروعه، وإذا تنور القلب حسن جنده وجموعه، والأخلاق التى كان مشتملة عليها الذات الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام هى الدين والعلم والصبر والحلم والشكر والعدل والزهد... وحسن الأدب مع الله ^(١).

ومدرسة مكة كانت رمزاً للاقتداء برسول الله ﷺ، وكان من أهم رجالها :

١- أبو الحجاج مجاهد بن جبر المحكى القرشى المخزومى ^(٢) :

وهو مولى السائب بن أبى السائب المخزومى، كان من أفقه وأزهد التابعين، عاش فى صحبة عبد الله بن عمر رضي الله عنه؛ لأنه رأى فيه مشابهة بأبيه عمر فى

(١) العلامة المحقق أحمد بن محيى الدين الحسنى الجزائرى، نثر الدر وبسطه فى بيان كون العلم نقطة، بتحقيق : أحمد فريد المزيدي، ص ٤٥، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى سنة ١٤٢٥ هـ - سنة ٢٠٠٤ م

(٢) الإمام ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ١٧٣. وانظر : تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، ج ٧ ص ٢١٧، وتهذيب الكمال، للمحافظ المزي، ص ٩٤٠.

الفضل، يقول : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني^(١).

وكان أيضًا من خواص أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير، حتى قيل : إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله تعالى إلا مجاهد وطاؤس.

وقال مجاهد : أخذ ابن عمر بركابي، وقال : وددت أن ابني سالمًا، وغلامي نافعًا يحفظان حفظك^(٢).

وقد أسند رحمه الله في الحديث عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، ورافع بن خديج، وحدث عن عائشة إلا أن حديثه عنها مرسل ؛ لأنه لم يسمع منها، وحدث عنه من أعلام التابعين : عطاء وطاؤس وعكرمة^(٣).

وعلى عين العلم بالدراية والتلقى في الرواية قام الزهد عند مجاهد، وقد اتخذ رحمه الله منهجًا ترغيبًا في الوصول إلى قلب السالك فقال :

إن العبد إذا أقبل على الله ﷻ بقلبه أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه^(٤).

وكان مجاهد من أهل البصرة في التأويل، فهو صاحب لمسة نورانية وضاعة، ومن تأويلاته المشهورة في قول الله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة] قال : ومعنى (قانتين) : من القنوت : أى : الركوع والخشوع وغض البصر، وخفض الجناح من رهبة الله^(٥).

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

(٣) الإمام ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٤٨.

(٥) الإمام البغوي، شرح السنة، بتحقيق : شعيب الأرناؤوط وزهير الشاوش، ج ٣ ص ٣٦٢، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، سنة ١٤٠٠ هـ.

وقد اتسم تأويله بالجمع والإحاطة بالمعاني.

ومن تأويلاته : ما جاء عنه في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات] قال : من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين، وقال : ما من يوم ينقضي من الدنيا إلا قال ذلك اليوم : الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها، ثم يطوى عليه فيختم إلى يوم القيامة حتى يكون الله ﷻ هو الذي يفيض خاتمه^(١).

وقد أمعن مجاهد النظر في تأويل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس]، فقال : معناه : لا تهلكننا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا : لو كانوا على حق لم يُسلط عليهم فيفتنوا^(٢).

وقد أوتي ﷺ حسن التأويل والعرض من صحبته لإمام المفسرين عبد الله ابن عباس زمناً طويلاً ، حتى إنه عُرِض عليه القرآن ثلاثين عرضة، ويقول : كنت أفقه كل آية أسأله فيم أنزلت ؟، وفيم كانت ؟^(٣)، وعليه فقد تثبت الإمام مجاهد في الفقه والتأويل .

ومن توجيهاته ﷺ التي اخترق بها أعماق البصائر، وكشف بها للأئمة عما يضمنه الشيطان لها من وساوس : ما حكاه عن إبليس لعنه الله حيث قال : ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث :

إذا سكر أحدهم أخذنا بخزائمه^(٤)، فقدناه حيث شئنا، وعمل لنا بما أحببنا،

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٤١ .

(٢) أجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ج ٨ ص ٢٣٧ .

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٢٥ .

(٤) الخزامة : هي جانب الأنف، وهي الشعر يوضع في ثقب أنف الإبل يُشد منها، المعجم الوجيز، ص

وإذا غضب قال بما لا يعلم، وعمل بما يندم .

وَبُخِّلُهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ وَتُمْنِيهِ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ^(١) .

ومن مواعظه عليه السلام : قوله في باب الاعتبار والالحوق دائماً بباب الأوبة : ما من مرض يمرضه العبد إلا ورسول ملك الموت عنده، حتى إذا كان آخر مرض يمرضه العبد أتاه ملك الموت فيقول : أتاك رسول بعد رسول فلم تعبأ به، وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا .

ومن كلامه في باب الموعظة أيضاً : يؤمر بالعبد إلى النار يوم القيامة، فيقول : ما كان هذا ظني، فيقول : ما كان ظنك ؟ فيقول : أن تغفر لي، فيقول : خلو سبيله ^(٢) .

وفي باب طهارة الأواني (القلوب) لتستقبل المعاني، ترك الإمام مجاهد أثراً عميقاً لا يزول ما بقي في الأرض حياة، أثراً يأخذ بالمواجد إلى المثل العليا، ويشد زمام القلب ليمسك على سلامته ووفائه بعيداً عن تسلل العلل والأمراض إليه، وله قولة عظيمة في هذا الباب يصف فيها حال القلب، حين قال :

القلب هكذا - وبسط كفه - فإذا أذنب الرجل ذنباً، قال : هكذا، وعقد واحداً، ثم إذا أذنب وعقد اثنين ثم ثلاثاً ثم أربعاً، ثم رد الإبهام على الأصابع في الذنب الخامس ثم يطبع على قلبه ^(٣) .

وقد أنصت طلاب مجاهد إليه وهم يهرعون، ويعيرون سمعهم لحلل الكلام المصفي الذي يدوي صدى صوته في ضمائرهم، حتى فاضت أفئدتهم

(١) الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ١٧٧ .

(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٤٩ .

رقة، وبللت العبرات عيونهم، إنهم أقبلوا عليه يتلهفون لأنوار اليقين التي تفتح على قلوبهم نافذة من الهدى يبصرهم في سيرهم، حتى يعودوا إلى ربهم آمنين .

ومن جليل كلامه ما ورد عنه :

يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر، بالغنى، والمريض، والعبد المملوك.

قال : فيقول الله ﷻ للغنى : ما شغلك عن عبادتى التى خلقتك لها ؟ فيقول : يا رب أكثر لى من المال فطغييت، فيؤتى بسليمان عليه السلام فى ملكه، فيقول لذا : أنت أكثر مالاً وأشد شغلاً أم هذا ؟ قال : فيقول : بل هذا يا رب، فيقول الله له : فإن هذا لم يمنعه ما أوتى من الملك والمال والشغل عن عبادتى .

قال : ويؤتى بالمريض، فيقول : ما منعك عن عبادتى .

التى خلقتك لها ؟ فيقول : يا رب ، شغلنى عن هذا مرض جسدى، فيؤتى بأيوب عليه السلام فى ضره وبلائه، فيقول له : أنت كنت أشد ضرًا ومرضًا أم هذا ؟ فيقول : بل هذا، فيقول : إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتى .

ثم يؤتى بالمملوك، فيقول الله له : ما منعك عن عبادتى التى خلقتك لها ؟ فيقول : رب ، فضلت على أربابًا فملكونى وشغلونى عن عبادتك، فيؤتى بيوسف عليه السلام فى رقة عبوديته، فيقول الله له : أنت كنت أشد فى رفقتك وعبوديتك أم هذا ؟ فيقول : بل هذا يا رب، فيقول الله : فإن هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتى ^(١) .

بهذه الكلمات المعبرة ملك الإمام مجاهد أعنة القلوب، وجعلها تطير

(١) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٤٢ .

بأجنحة الخشية إلى أرض الإيمان المباركة، ومزج الدموع بالعبرات، حتى خفقت الأفئدة رهبة، وخشع سلطانها رغبة، وتوحدت الوجهة إلى غاية واحدة، وهي العبودية لله رب العالمين .

وفي لحظة تأخذ الألباب للأسى، والقلوب للحزن فاضت روح الإمام إلى بارئها مطمئنة والسكون يعلوها، والملائكة تحوم حولها وتزفها إلى عليين، حيث مات ﷺ وهو ساجد لله رب العالمين سنة مائة، وقيل : إحدى، وقيل : ثنتين، وقيل : ثلاث ومائة، وقيل : أربع ومائة، وقد جاوز الثمانين، والله أعلم^(١).

رحم الله الفقيه، صاحب المقامات العلية، والفتوحات السنية، قائد ركب الزاهدين على عصره، سيدى الإمام مجاهد بن جبير .

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٩، وابن الجوزى، في صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٤٩ .

٢ - أبو محمد عطاء بن أبي رباح الفهرى

أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء، يقال : إنه أدرك مائتي صحابي، وكان ثقة فقيها عالماً، كثير الحديث، وقيل : ما بقى أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه .
وكان ينادى منادى بنى أمية في أيام منى : لا يفتى الناس في الحج إلا عطاء ابن أبي رباح ^(١) .

وقيل : إنه حج سبعين حجة ، وعاش مائة سنة .

كان إذا حدثه أحد بحديث وهو يعلم، يصغى إليه وكأنه ما سمعه قط ؛ لثلا يخجل الرجل .

وكان يقرأ في قيامه في صلاة الليل المائتي آية أو أكثر، نشأ بمكة وهو مولى آل أبي ميسرة الفهرى ^(٢) .

أُسند عن كثير من الصحابة منهم ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، وزيد بن خالد الجهني، وسمع من ابن عباس التفسير وغيره، وروى عنه من التابعين عدة منهم الزهري، وعمرو بن دينار، وأبو الزبير، وقتادة، ومالك بن دينار وغيرهم .

وكان عطاء - رحمه الله - يقول : من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل .

فقليل له : وما مجلس الذكر ؟

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٢٩ .

(٢) الإمام الشعراني، الطبقات الكبرى، ج ١ ص ٣٤، طبعة محمد علي صبيح وأولاده .

قال : مجالس الحلال والحرام، كيف نصلى ؟ كيف نصوم ؟ كيف تنكح وتطلق وتبيع وتشتري ؟

وروى عن غير واحد أن حلقة الدرس في المسجد الحرام كانت لابن عباس، فلما مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبي رباح ^(١).

وكان مجلس عطاء مليئاً بالطمأنينة والراحة التي تنساب إلى ضمائر الطلاب وتستقر في مواجدهم، وعرف لعطاء علمه وغزارته الذي ذاع في الآفاق، وحسن خلقه وطهارة قلبه الذي يتسع لكل تلاميذه ولا يتصف بالصلف ولا بالغرور، بل امتلأت جوانحه بالتواضع والرقّة وكان يحث طلابه بمتابعة بعضهم وتفقد أخبار بعض، وقد حثهم على ذلك وقد اجتمعوا متحلقين في الدرس قائلاً :

تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغل فأعينوهم، أو كانوا نسوا فذكروهم ^(٢).

وقد بدأ عطاء بن أبي رباح روحاً جديداً يؤذن بتجديد شباب العلم لديه، ويرقى فيهم الحلم مع العلم، وتوطيده في نفوسهم ليكون لهم ظهيراً يؤيدهم، ويقف معهم لتكتمل لديهم مسيرة التحصيل، وقد تابعهم في ذلك بحرص، يقول - رحمه الله - : ما أوى شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم ^(٣).

كما تابع ﷺ فيهم حفظ اللسان، وحثهم على الصمت، وانقشع في ذلك من قلبه كل اشتغال، فجلس معهم والموعظة نطل من عينيه، وهو يقول في هزة

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٣٠.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٢ ص ١٧٦.

(٣) الإمام الدارمي، سنن الدارمي، بتحقيق : فؤاد أحمد أزمرلي وخالد السبع العلمي، ج ١ ص ١٥٢ برقم ٥٧٨، طبعة دار الريان للتراث، سنة ١٤٠٧ هـ.

صوت : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يَعُدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه ، أو تأمرَ بمعروف، أو تنهى عن منكر، أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها أتذكرون : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار] ، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَافِلُونَ﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق] . أما يستحي أحدكم أن لو نُشرت عليه صحيفته التي أملى صدره نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ^(١) .

وراح عطاء يعظ أمير المؤمنين، فموعظته لم تقف عن حد مجلسه، فقد أخذته صبرة ذات مرة، وَهَمَّ والشجاعة تلمؤه، ودخل على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وهو جالس على سرير، وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة المكرمة في وقت حَجَّه في خلافته، فلما نظر إليه قام إليه وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له : يا أبا محمد ، ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله في حرم الله وحرم رسوله ﷺ ، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم، فقال : يا أبا محمد ، إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال : ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك : هذا والله الشرف، هذا والله أنشرف ^(٢) .

(١) الإمام أبو بكر عبد الله بن أبي الدنيا، الصمت وحفظ اللسان، ص ٢٤٠ - ٢٤١، تحقيق : محمد أحمد عاشور، طبعة دار الاعتصام، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٨ هـ - سنة ١٩٨٨ م .

(٢) ابن النحاس، تنبيه الغافلين، ص ٤٥ - ٤٦، بتحقيق : نصر السمرقندي، دار الشروق، جنة سنة ١٤٠٠ هـ .

وكان ﷺ حريصًا على التودد لقربائه، حريصًا على الحث والنصح لطلابه على ذلك، بل وحثهم على العطاء والسعة عليهم، ومن شدة حرصه على تحقيق هذه الصلة بالعطاء للأثرياء لم يجعل لها ضوابط ولا معايير، قال: لدرهم أضعه في قرابتي أحب إليّ من ألفٍ أضعها في فاقة.

قال له قائل : يا أبا محمد، وإن كان قرابتي مثلي في الغنى، قال : وإن كان أغنى منك ^(١) .

وقد أظهر عطاء نورانية بصيرته، وتدفق إلهاماته حين راح يفسر آي القرآن الكريم، فله لمسة عذبة في تفسير قوله تعالى : ﴿وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ﴾ [النور : ٢٦] ، قال : والطيبات من القول للطيبين من الناس، ألا ترى أنك تسمع بالكلمة الخبيثة من الرجل الصالح، فتقول : غفر الله لفلان ما هذا من خلقه، ولا من شيمه، ولا مما يقول، قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور : ٢٦] أي : لا يكون ذلك من شيمهم، ولا من أخلاقهم، ولكن الزلل قد يكون ^(٢) .

وكان من صفات عطاء الزهد في عيشه وفي لباسه، فقد أخبر الإمام أحمد بن حنبل بأن عطاء ما رُؤى قط وعليه قميص، ولا رُؤى قط وعليه ثوب يساوي خمسة دراهم ^(٣) .

ومع زهده ﷺ لم يحجب نفسه عن مشكلات مجتمعه، فقد عايش الفترة الحرجة في التاريخ العقائدي والسياسي للمسلمين على أثر مقتل عثمان ، فلم

(١) أبو بكر عبد الله بن أبي الدنيا، مكارم الأخلاق، ص ٦٢، بتحقيق : ج . أ . بالمى، ألمانيا، بادن بادن، سنة ١٩٧٣ م .

(٢) الإمام جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٦ ص ١٦٧، طبعة دار الفكر، طبعة أولى سنة ١٤٠٣ هـ .

(٣) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٣١ .

يعتكف بعيداً عن الأحداث، ولما تفجرت المشاكل التي أثارها الشيعة والخوارج والمعتزلة بالكوفة ، أدلى برأيه فيما دار من مسائل ^(١) .

وظل ابن أبي رباح في ميدان العلم والزهد، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة إلى أن توفي بمكة سنة خمس عشرة ومائة ^(٢) - رحمه الله - وطيب ثراه، وجمعنا وإياه في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

(١) د . مصطفى حلمي، الزهاد الأول، ص ٨١ بتصرف .

(٢) الإمام الشعراني، الطبقات الكبرى، ج ١ ص ٣٤ .

ثالثا : مدرسة الكوفة الزهدية

من المعروف أن أهل الكوفة اتسموا بالاجتهاد فى مسائل القضاء والإمارة^(١) لهذا يقال : (فقه كوفى)^(٢) .

ومع وجود الشيعة بالكوفة، وكثرة تكذيبهم بالوضع فى الحديث على رسول الله ﷺ، إلا أن ذلك لا ينفى وجود الثقات الذين لا ريب فى صدقهم أمثال أصحاب عبد الله بن مسعود^(٣) .

وقد برز شيوخ الزهد بالكوفة، وكان على رأسهم أويس القرنى، وسعيد بن جبير، ومسروق بن الأجدع ، وسفيان الثورى ، وفيما يلى نظوف حول هؤلاء الرجال .

١ - أويس القرنى

قيل : هو أويس بن عامر بن جَزء بن مالك بن عمرو بن مسعدة بن عمرو ابن سعد بن عصوان بن قرن بن رومان بن ناجية بن مراد المرادى ثم القرنى، الزاهد المشهور، من كبار التابعين^(٤) .

وقد بشر النبى ﷺ به وبصلاحه وتقواه، ووصفه للصحابة .

فعن أسير بن جابر قال : كان عمر بن الخطاب إذا أتت عليه أمداد أهل اليمن سألهم : هل فيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس، فقال : أنت أويس بن عامر ؟

(١) الإمام ابن تيمية، الصوفية والفقراء، ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق، ص ٩ .

(٣) الإمام ابن تيمية، مذهب أهل المدينة، ص ٣٢ . د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ٨٤ .

(٤) الشيخ إبراهيم الدسوقي سيد منصور، الصفى الخفى سيدى أويس القرنى، ص ٢٣، دار جوامع الكلم .

قال : نعم .

قال : من مراد ثم قرن ؟

قال : نعم .

قال : كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟

قال : نعم .

قال : لك والدة ؟

قال : نعم .

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتى عليهم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بار ، لو أقسم على الله ﷻ لأبصره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » ، فاستغفرتلى ، فاستغفر له .

فقال عمر ؓ : أين تريد ؟

قال : الكوفة .

فقال : ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصى بك .

قال : لأن أكون في غابر الناس أحب إلي .

قال : فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشrafهم ، فوافق عمر فسأله

عن أويس : كيف تركته ؟

قال : تركته رث الهيئة ، قليل المتاع .

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يأتي عليك أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل » .

فلما قدم الكوفة أتى أويسًا فقال : استغفر لي .

فقال : أنت أحدث عهدًا بسفر صالح، فاستغفر لي، لقيت عمر ؟

قال : نعم، فاستغفر له ، ففطن له الناس فانطلق على وجهه .

قال أسير وكسوته بردًا ، فكان إذا رآه إنسان عليه، قال : من أين لأويس هذا البرد ^(١) .

وكان سيدي أويس زاهدًا، فقد أخذ على نفسه بالتقشف بشدة لا يحتملها إلا مؤمن عمر قلبه بحقيقة راسية كالجبال، لا تززعها عواصف الفتن الهوجاء لتفوذ سر الله إليها، فقد طهر ضميره من الأدران، وقد صدق علقمة بن مرثد حين حكى عن زهد أويس :

انتهي الزهد إلى ثمانية ، منهم أويس القرني ، ظن أهله أنه مجنون فبنوا له بيتًا على باب دارهم، فكانت تأتي عليه السنة والسنون لا يرون له وجهًا، وكان طعامه مما يلتقط من النوى، فإذا أمسى باعه لإفطاره، فإن أصاب حشفة حبسها لإفطاره .

وقد بدا خوف أويس من المصير، حين أخذه الوجل، وانقشعت من قلبه الرهبة تتدفق حتى كست أحواله، لما مر عليه رجل من مراد فقال : كيف أصبحت ؟

(١) انفراد بإخراج هذا الحديث الإمام مسلم، انظر : صفة الصفوة، لابن الجوزي، ج ٢ ص ٥١٧-٥١٨ .

قال : أصبحت أحمد الله ﷻ.

قال : وكيف الزمان عليك ؟

قال أويس : كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسى، وإن أمسى ظن أنه لا يصبح ، فمبشر بالجنة، أو مبشر بالنار، يا أخا مراد : إن الموت وذكره لم يترك لمؤمن فرجاً، وإن علمه بحقوق الله لم يترك له فضة ولا ذهباً، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقاً^(١).

إنه كان يقسم الليالى بين الركوع والسجود، فكان إذا أمسى يقول : هذه ليلة الركوع، فيركع حتى يصبح، وكان يقول إذا أمسى : هذه ليلة السجود، فيسجد حتى يصبح .

وكان إذا أمسى تصدق بما فى بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول : اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذنى به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذنى به^(٢).

وقد صدق الإمام الشاطبى حين أطلق على أويس : سيد العباد بعد الصحابة^(٣)، ويصفه الإمام الذهبي بأنه : القدوة الزاهد سيد العابدين فى زمانه^(٤).

وجعله الإمام أحمد مضرب مثله فى الزهد والورع، فقال : لا زهد إلا زهد أويس ، بلغ به العرى حتى قعد فى قوصرة^(٥). إنه كان يتصدق بثيابه حتى يجلس عرياناً لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة^(٦).

(١) العلامة الشيخ إبراهيم الدسوقي، الصفى الخفى سيدى أويس القرنى، ص : ١٨٢ .

(٢) الإمام أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء، ج ٢ ص ٨٧ .

(٣) الإمام الشاطبى، الاعتصام، ج ٢ ص ٢١ .

(٤) الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ١٣٥ .

(٥) القوصرة وعاء من قصب للتمر : وهى بالتشديد ، والبعض تخفيفها انظر : تهذيب اللغة . (قصر) .

وقال ابن دريد : لا أصل لها فى العربية : وأحسبها دخيلاً .

(٦) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ٣٤٧ .

وهكذا عاش أويس مستغرقاً في العبادة والزهد ، فهو في نهاره دائم الصلاة ، وفي ليله قائم حتى يصبح ، يقول : بلغني أن الله عباداً سجدوا أبداً^(١) . وربما يقصد بذلك التشبه بالملائكة ، ويقوى ذلك ما أثر عنه : لأعبدن الله في الأرض كما تعبد الملائكة في السماء^(٢) .

وهذا لا يعد مخالفة على حد قول الشاطبي ؛ لأن أويساً كان يقتدى برسول الله ﷺ الذي كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، ولم يكن يمنعه ذلك من الجهاد ، وهكذا فعل أويس القرنى ، فإن الاختلاف في تاريخ وفاته يرجع إلى تعدد الأخبار في سبب موته ، فمن المحتمل أنه قتل في موقعة صفين ، أو بعد خروجه غازياً إلى ثغر أرمينية حيث مرض ومات ، ويرجح ابن عساكر أنه قتل بصفين^(٣) .

وكان سيدى أويس يحب العزلة والخفاء ؛ لأنه لا يجب أن يكون هناك شيء يعزله عن الله أو يبعده عنه ، فكان سيدنا عمر بن الخطاب يسأل عنه وفد أهل الكوفة إذا قدموا عليه : تعرفون أويساً القرنى ؟ فيقولون : لا ، مع أنه مقيم إقامة كاملة في الكوفة ، لكنه كان يفضل ألا يعرفه أحد^(٤) .

هكذا عاش أويس خفياً تقياً ، يملؤه الورع ، ويتوقل معارج الزهد ، حتى ملك أعنة الأفئدة بحبه ، وتمنت العيون رؤيته ، وإن التقت القلوب بقلبه .

رحم الله سيدى أويساً ، وعلمنا من زهده ما نقود به الدنيا ، دون أن تقودنا ، وشمنا في كنف من استغفر لهم ... آمين .

(١) الإمام الشاطبي ، الاعتصام ، ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) الشيخ . إبراهيم الدسوقي ، الصفى الخفى سيدى أويس القرنى ، ص ٢٦٣ .

٢ - أبو عبد الله سعيد بن جبیر

قدوة العباد، وعلم الأصفیاء من الزهاد، سعيد بن جبیر ابن الحارثية من بنى أسد بن خزيمه، كان إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد، وبكى بالليل حتى عمش، واعتاد ختم القرآن كل ليلتين، وكان شديد الخشية لله، ومن كلامه فيها : إن الخشية : أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية، والذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن كثرت التسييح وتلاوة القرآن^(١).

ولابن جبیر باع طويل فى الحذاقة والحنكة، مفرط العطاء فى الحكمة، كانت كلماته فى المعانى قليلة جامعة، فمثلاً لما سئل عن معنى التوكل، قال : التوكل على الله ﷻ جماع الإيمان^(٢).

وقد أصاب بذلك قلب حقيقة التوكل، فقمة التوكل تبدو عند تجريد القلب عن كل شىء سوى الله وإخلاؤه من علائق المشاركة الخفية لغير الله تعالى عن قصد أى شىء من الأشياء .

وكان ابن جبیر شديد الخوف ، حتى إنه كان يصلى الفجر ويردد قول الله تعالى : ﴿وَأَمْتَرُوا آلَیَوْمَ أَيْهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ [یس] اثنتين وعشرين مرة .

وسئل يوماً عن أعبد الناس، فقال : رجل اجتراح من الذنوب، فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله .

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٥٣٦ بتصرف .

(٢) هناد بن السرى، الزهد، ج ١ ص ٣٠٤، بتحقيق : عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى، طبعة دار حلفاء للكتاب الإسلامى، الكويت، سنة ١٤٠٦ هـ .

وكان - رحمه الله - كثيرًا ما يقرأ فى صلاته قول الله تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] ، ثم يرددها بضعة وعشرين مرة ^(١) .

على هذا الخط من الخوف والمحاسبة وطدت نفس ابن جبير ، وكانت حلاوة الإيمان تغطى كل أحواله ، فكان يثبت على إيمانه فى إصرار تحطمت عليه كل أدوات الاضطهاد التى عاشها أيام الحجاج بن يوسف الثقفى ، والذى انتهى بقتله ﷺ .

وكان ابن جبير تلميذًا لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وقد عاش مجاهدًا بالعلم والعمل ، ووقف فى وجه الحجاج وخرج عليه ، وتابعه الحجاج حتى أخذه خالد بن عبد الله القسرى فى مكة وبعث به إلى الحجاج ، ولما أخذه الحجاج ، قال سعيد بن جبير : ما أرانى إلا مقتولًا ، ودعا بابنه وجعل ابنه يبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة ؟ !

ولما أتى الحجاج بسعيد بن جبير قال : أنت الشقى ابن كسير - تهكمًا باسمه سعيد بن جبير .

قال : بل أنا سعيد بن جبير .

قال : بل أنت الشقى ابن كسير .

قال : كانت أمى أعرف باسمى منك .

قال : ما تقول فى محمد ؟ قال : تعنى النبى ﷺ ؟

قال : نعم .

(١) الإمام ابن الجوزى ، صفة الصفوة ، ج ٢ ص ٥٣٦ بتصرف .

قال : سيد ولد آدم، المصطفى، خير من بقى وخير من مضى.

قال : فما تقول في أبى بكر الصديق ؟ قال : الصديق خليفة رسول الله ﷺ،

مضى حميدًا وعاش سعيدًا، ومضى على منهاج نبيه ﷺ لم يغير ولم يبدل.

قال: فما تقول في عمر ؟ قال : عمر الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله، مضى

حميدًا على منهاج صاحبيه، لم يغير ولم يبدل ؟

قال : فما تقول في عثمان ؟

قال : المقتول ظلمًا، المجهز جيش العسرة ، الحافر بئر رومة، المشتري بيته في

الجنة، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه، زوجة النبي ﷺ بوحي من السماء.

قال : فما تقول في على ؟

قال : ابن عم رسول الله ﷺ وأول من أسلم، زوج فاطمة وأبو الحسن

والحسين.

قال : فما تقول في ؟

قال : أنت أعلم بنفسك.

قال : بث بعلمك .

قال: إذا نسؤك ولا نسرك .

قال : بث بعلمك.

قال : أعفنى.

قال : لا عفا الله عني إن أعفيتك .

قال : إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله ، ترى من نفسك أمورًا تريد بها الهيبة وهي التي تقحمك الهلاك ، وسترد غداً فتعلم .

فقال : أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك ولا أقتلها أحداً بعدك .

قال : إذا تفسد على دنياي وأفسد عليك آخرتك .

قال : يا غلام ، السيف والنطع .

فلما ولى ضحك ، قال : قد بلغني أنك لم تضحك .

قال : قد كان ذلك .

قال : فما أضحك عند القتل ؟

قال : من جرأتك على الله ﷻ ، ومن حلم الله عليك .

قال : يا غلام ، اقلته ، فاستقبل القبلة ، فقال : وجهت وجهي للذي فطر

السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين .

فصرف وجهه عن القبلة ، فقال : أينما تولوا فثم وجه الله .

قال : اضرب به الأرض ، قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ

تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه] ، فذبح من قفاه .

فبلغ ذلك الحسن بن أبي الحسن البصري ، فقال : اللهم يا قاصر الجبابة

اقصم الحجاج ، فما بقي إلا ثلاثاً حتى وقع في جوفه الدود فمات في سنة أربع

وتسعين ، وقيل : خمس وتسعين ، عن عمر يناهز الخمس وثمانين سنة ^(١) .

رحم الله الإمام المجاهد ، والشهيد الزاهد ، والتقوى العابد : سعيد بن جبير .

٣ - سفيان الثوري

الكادح الذي لا يبرح، والزاهر الذي لا ينزح، العارف المتفكر، والعالم المتذكر، صاحب الحذر والورع، والبكاء والضرع، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أحد زهاد الكوفة وعلم من أعلامهم، لقب بأمر المؤمنين في الحديث^(١).

سلك درب الزاهدين، حتى قوّم ما عليه من ملبس ونعال، فقدر بدرهم وأربعة دوانق، وكان يضع يده على رأسه بالليل إذا سمع صيحة ويقول : قد جاءنا العذاب.

وكان يقول : ما من موطن من المواطن أشد على من سكرة الموت، أخاف أن يشدد علىّ، فأسأل التخفيف، فلا أجاب فأفتن^(٢).

ازداد شحذه لهفته، وأخذ يتمادى في طريق الزهد والخوف، فلم ير نهاية لإشباع طموحه، فلطالما ذهب لزيادة، وألقى بقلبه في دروب العابدين حتى ختم القرب في صفحة قلبه.

قال عنه أحد المعانين لحاله المتخرجين عليه في مجلس علمه : يعجبني مجالس سفيان الثوري، كنت إذا شئت رأيته في الورع، وإذا شئت رأيته مصلياً، وإذا شئت رأيته في الفقه، وما رأيته محدثاً أفضل من سفيان الثوري^(٣).

وقد اعتبر سفيان الورع سبباً في تخفيف الحساب، وذلك لأن الورع وإن كان يؤلم الجسد لما فيه من تقييد لدوافع النفس تجاه مثيراتها، ولكنه سرعان ما

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٦ ص ١٩٣. وابن كثير في البداية والنهاية، ص ١٣٤.

(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٥٦٩ - ٥٧٠ بتصرف.

(٣) الإمام أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ٦ ص ٣٥٨.

يوصل إلى الروح، فالورع شدة تها أحسن الفرص لنفوذ سر الله إليه ودفع الشك باليقين، فتظهر جوانحه من سائر العلل.

يقول سفيان : عليك بالورع يخفف الله حسابك، ودفع ما يربك إلى ما لا يربك، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك ، ومن شدة ما قال في الورع - قال عنه قتيبة بن سعيد : لولا سفيان الثوري لمات الورع ^(١) .

وبكى سفيان ونحب، واشتد وجع الخشية بقلبه حتى قال له رجل : يا أبا عبد الله ، أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض فقال : والله لذنوبى أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت ^(٢) .

وواضح من هذا القول مدى خوف سفيان من الفتنة عند الخاتمة، ومع خوفه الشديد رأينا الأمل في رجاء المغفرة من الله يتلأأ في أنفاسه، فإذا بلسانه يتحرك بوحى من ذات مؤمنة بأجمل ما تحرك به لسان، فإذا به يقول : مَنْ أذنب ذنباً فعلم أن الله قدّره عليه، ورجا غفرانه، غفر الله له ذنبه ^(٣) .

وللثورى تصور في النفس أصاب به قلب الحقيقة، إنه أدرك ما يعانيه المجاهد لنفسه من ثورة عارمة يكاد القلب أن يتلاشى منها، فبين اقتراف الذنب وبين الندم، وبين الإمساك عن الذنب، يستولى على الإنسان نوع من الضجر ، وكأن الكروب قد هوت على صفحة قلبه، وكأن الذنوب قد ثاقلت على عاتقه، فقد يصبح المرء أمام نفسه مهزوماً لانفلات زمام إرادته وعبوديته لشهوات تلك النفس، لذلك قال الثورى مقراً بتلك المشقة :

(١) الإمام ابن أبى الدنيا، الورع، ص ١١٢، وهو صحيح الإسناد، بتحقيق : أبو عبد الله بن حمد، مطابع القبس، سنة ١٤٠٨ هـ .

(٢) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٥٧٠ .

(٣) الإمام . الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١ ص ١٤٥ .

ما عاجلت شيئاً أشد على من نفسى، مرةً لى ومرةً على^(١).

ولقد دق الثورى فى تشخيص البواطن، فكما شخص فى علم النفوس، برع فى عالم القلوب، فوصل إلى حال القلب عند تقلبه بين السعادة والحزن، والسعة والضيق، فبين قيمة اليقين إذا استقر فى القلب، وقد لخص صفة القلب عند يقينه بقوله :

لو أن اليقين استقر فى القلب كما ينبغي ، لطار فرحاً وحزناً وشوقاً إلى الجنة، أو خوفاً من النار^(٢).

وكان سفيان الثورى يصدق بالحق، ولا يخاف فى الله لومة لائم، فراح مرة من مرات يملئ ما أملاه عليه يقينه، ودخل فى مشادة أو محاجة لأبى جعفر المنصور أيام ولايته أمور المسلمين، فثارت جوارحه، وارتعدت فرائضه، وكأن روحه تكاد تنفلت من بين جنبيه ، غضباً لفقراء المسلمين .

فقد دخل على أبى جعفر المنصور بمنى أثناء الحج، فقال المنصور : ارفع إلينا حاجتك.

فقال سفيان الثورى : اتق الله ، قد ملأت الأرض ظلماً وجوراً.

قال : فطأ رأسه ثم رفعه، وقال : ارفع إلينا حاجتك، فقال الثورى : إنما أنزلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين والأنصار، وأبناءؤهم يموتون جوعاً فأتق الله، وأوصل إليهم حقوقهم، قال : فطأ رأسه، ثم رفعه وقال : ارفع إلينا حاجتك، فقال الثورى : حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهماً، وأرى ها هنا أموالاً لا تطيقها الجبال^(٣).

(١) المصدر السابق، ج ٣ ص ٧١ .

(٢) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٧ ص ١٧ .

(٣) ابن النحاس، تنبيه الغافلين، ص ٤٣ - ٤٤ ، وابن أبى حاتم، الجرح والتعديل، ج ١ ص ١٠٦ .

إنها محاجة وصنخب في مواجهة أبي جعفر المنصور، حتى نسي الثوري ولاية المنصور، فقد عرف الإيمان طريقه إلى قلبه فهان في عينه كل سلطان إلا سلطان الله، ولم يعد يخشى لومة المنصور في الحق، ولم يتذكر إلا حال الفقراء وحال عمر معهم، وقد أنفق المال عليهم ولم يسرف في إنفاقه في الحج، إنما لم تتعد القليل من الدراهم .

ويُعد سفيان الثوري في الصف الأول دفاعًا عن الصالحين والأولياء والمقربين، فكان الدفاع عنهم يملأ قلبه، ويستولى على تفكيره، وكان حبهم هدفًا لديه، وقد ترجم عن ذلك حين أخذته حمية دافقة، وغيره دافعة فجهر بتلك المحبة وبذلك التقدير قائلاً :

عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، ومن لم يحفظ من أخبارهم إلا ما بدر من بعضهم في بعض على الحسد والهفوات، والتعصب والشهوات دون أن يعي بفضائلهم حُرم التوفيق ودخل في الغيبة وحاد عن الطريق^(١) .

وفي الوقت الذي ارتفعت فيه أمواج الإجلال في قلب سفيان للصالحين، تعوذ من العالم الفاجر، والعابد الجاهل، بل أمر طلابه بالتعوذ منها فقال : تعوذوا بالله من فتنه العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون^(٢) .

وجد الثوري في محاربة البدعة، وكان خليقًا بمحاربتها لأنها أمانة، كفاءًا لحمل الأمانة، فالحق فيه ظهيرٌ يؤيده وينصره ويقف معه في وجه كل ابتداء

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج ٢ ص ١٦٢، طبعة دار الفتح، سنة ١٩٨٧ م .

(٢) سنن الدارمي، ج ١ ص ١٠٧ برقم ٣٣٠ .

يخرج الناس من النور إلى الظلمات، إنه راح يزجر أهل البدعة وكل مبتدع قائلاً:

دع الباطل، أين أنت من الحق؟! اتبع السنة، ودع البدعة^(١) وقال فى وصف البدعة: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يثاب عليها^(٢).

ومن الفضائل التى نادى بها الثورى طلابه وأصحابه العفة ورفع البصر، فقد خرجوا فى يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به فى يومنا عفة أبصارنا^(٣).

وهكذا عاش سفيان الثورى حياته فى عفة وطهر ونقاء وزهد، حتى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: لا يتقدمه فى قلبى أحد، ثم قال: أتدرى من الإمام؟ الإمام سفيان الثورى.

وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم.

وقال أيوب: ما رأيت كوفياً أفضله عليه.

وقال شعبة: ساد الثورى الناس بالورع والعلم، وقال أصحاب المذاهب ثلاثة: ابن عباس فى زمانه، والشعبي فى زمانه، والثورى فى زمانه.

وبهذا يعد الثورى أحد أئمة الإسلام وعبادهم، والمقتدى بهم، روى عن غير واحد من التابعين، وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم.

(١) الإمام جلال الدين السيوطى، الأمر بالاتباع، ص ٨٣، تحقيق: ذيب بن منصور القحطاني، الرياض. وشرح السنة، للبغوى، ج ١ ص ٢١٧.

(٢) الإمام ابن الجوزى، تلبس إبليس، ص ١٣، تحقيق: محمود مهدى الإستانبولى، طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٥ م.

(٣) ابن أبى الدنيا، الورع، ص ٦٣.

وقد أجمع العلماء على أن الثوري توفي في البصرة سنة إحدى وستين ومائة، وكان عمره يوم مات أربعاً وستين سنة، ورآه بعضهم في المنام يطير في الجنة من نخلة إلى نخلة، ومن شجرة إلى شجرة، وهو يقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤] ^(١).

رحم الله الثوري، ورزقنا مسلكه وطريقته، وجمعنا وإياه في مستقر رحمته.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ١٥٤، ١٥٥، بتصرف.

رابعاً : مدرسة الزهد بالبصرة

تعد البصرة من الأمصار الأولى في تخريج العباد والزهاد، حتى ذهب بعض العلماء - ومنهم الإمام ابن تيمية - إلى أن منشأ التصوف كان بالبصرة؛ لما امتاز به عبادها من شدة الخوف^(١).

وستتناول في حديثنا عن مدرسة البصرة اثنين من شيوخها، يعدان أساساً في التكوين العلمي والثراء الزهدي في تلك المدرسة، وهما.

الإمام الزاهد قتادة بن دعامة السدوسي .

وشيوخ الزهاد : الحسن البصري .

وسأكتفى بهذين العلمين ، رغم وجود غيرهما من أصحاب الصدارة في مدرسة البصرة ، مثل الإمام أبى عثمان النهدي (١٠٠هـ - ٧١٨م)؛ لأن المجال لا يتسع لحصر كل الأعلام .

(١) الإمام ابن تيمية، رسالة الصوفية والفقراء، ص: ٢٠ .

١ - أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي

العالم الحافظ، الواعظ العامل قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري الأعمى ^(١).

أحد العلماء والأئمة العاملين، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين، منهم سعيد بن المسيب والبصري، وأبو العالية، ووزارة بن أوفى، وعطاء ومجاهد، وحدث عنه جماعات من الكبار كالأوزاعي وشعبة والأعمش.

قال عنه ابن سيرين : هو من أحفظ الناس. وقال الإمام أحمد بن حنبل : هو أحفظ أهل البصرة، لا يسمع شيئاً إلا حفظه، وقال بكر المزي : ما رأيت أحفظ منه ^(٢).

وقد جالس الحسن البصري اثنتي عشرة سنة ^(٣)، لذلك لا عجب من نباغته وفطنته وزهده.

وكان قتادة صاحب نظرة عميقة في فهم نصوص القرآن الكريم، ومن عطاءاته في ذلك :

قال : ما جالس القرآن أحد فقام عنه إلا بزيادة أو نقصان، ثم قرأ قول الله تعالى : ﴿ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء] ^(٤).

(١) تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ج ٣ ص ١٥٥، وسير أعلام النبلاء، للذهبي، ج ٥ ص ٢٦٩.

(٢) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٣٨ بتصرف.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧ ص ٢٢٩.

(٤) سنن الدارمي، برقم ٣٣٤٤.

وقال في قول الله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، إذ كنتم تذابحون فيها ، يأكل شديدكم ضعيفكم حتى جاء الله بالإسلام فأخى به بينكم ، وألف به بينكم ، أما والله الذي لا إله إلا هو ، إن الألفة لرحمة ، وإن الفرقة لعذاب ^(١) .

وكان لقتادة صناعة حسنة في الكلام عن فضل الدخول في المعية الإلهية ، ومن حسن صناعته قوله : من وثق بالله ، كان الله معه ، ومن يكن الله معه يكن الفئة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل ، والعالم الذي لا ينسى ^(٢) .

ولما كان الدخول في المعية الإلهية يثبت العلم ، كان العلم مع المعية يدا في صلاح الحال ، وتلك لفظة أخذ قتادة ناظرنا إليها حين قال :

باب العلم يحفظه الرجل يطلب له صلاح نفسه ، وصلاح دينه ، وصلاح الناس ، أفضل من عبادة حول كامل ^(٣) .

فتوجيه العلم مرتبط بالنية ، فهو إما لصلاح حال في دين ، أو لصلاح دنيا دون دين ، والمعنى الذي قصده قتادة المعنى الجامع لصلاح الدين والدنيا معاً .

وكان قتادة من العباد الزهاد القوامين ، الذاكرين ، ومن أبواب ذكره ختمه القرآن في كل سبع ليال مرة ، فإذا جاء العشر ختم في كل ليلة مرة ^(٤) .

مات قتادة - رحمه الله - سنة سبع عشرة ومائة ، وعمره ست أو سبع وخمسون سنة ^(٥) .

(١) الإمام جلال الدين السيوطي ، الدر المنثور ، ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٣١٤ .

(٣) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٢ ص ٦٢٥ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٣٣٨ ، وصفة الصفوة ، ج ٢ ص ٦٢٦ .

۲ - الإمام الحسن البصری ؓ

حلیف الخوف والحزن، ألیف الهم والشجن، الزاهد العابد الحسن بن أبی الحسن البصری .

ولد فی خلافة عمر، وحنكه عمر بیده، وأمه خیره مولاة لأم سلمة، كانت تخدمها، وربما أرسلتها فی الحاجة، فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضیع فتشاغله أم سلمة بثديها، فیدران علیه فیرتضع منها، فكانوا یرون أن تلك الحکمة والعلوم التي أوتیها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدي المنسوب إلى رسول الله ﷺ .

ثم كان وهو صغیر تخرجه أمه إلى الصحابة، فیدعون له، وكان فی جملة من یدعوه له عمر بن الخطاب قال : اللهم فقهه فی الدین، وحبیه إلى الناس .

وسئل مرة أنس بن مالك عن مسألة، فقال : سلوا عنها مولانا الحسن البصری، فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسینا .

وقال أنس مرة : إنی لأغبط أهل البصرة بهذین الشیخین . الحسن البصری، وابن سیرین .

وقال قتادة : ما جالست رجلاً فقیهاً إلا رأیت فضل الحسن البصری علیه^(۱) .

لقد نال الحسن البصری بركة المنبت، ونالته دعوة عمر بن الخطاب ، فانبعثت من أغواره أنوار الحکمة التي تهیب به أن ملک زمام العلم، وأثار نور

(۱) المرجع السابق نفسه، والبداية والنهاية، ج ۹ ص ۲۸۸ .

اليقين قلبه، وأوضح لعينيه معالم الطريق الصحيح حتى ألفه الناس، فراح يحدثهم بما يساوره من أفكار ودرر، فخاض في عمق السلوك الروحي وأفاض، تحدث في باب التوبة وراح يعرفها بقوله :

التوبة ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضماماً ألا يعود^(١).

ووضع مقارنة بين التوبة وترك الخطيئة فقال :

يا بن آدم، ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة^(٢).

وقد تحدث إمام البصرة كثيرًا عن القلوب ونواياها، وحياتها وموتها، ويبدو أن هذا السبب جعل المتصوفة ومؤرخيهم يجعلونه من أئمة شيوخهم، واستفاض الحديث عن علم الباطن على وجه العموم في منطق البصري، ونستطيع أن نصنف حديثه عنه في عدة نقاط :

النقطة الأولى : علم القلوب :

راح البصري يُملئ على مسامع القلوب علومها، وينفث فيها من أحوالها ما يفصح لها عن حقيقة حالها، فيبين أن في القلب حياة لو بعث القلب بسرها لتغيرت أمور كثيرة، وذلك حين بكى حتى رعدت منكباه، ثم قال :

لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحًا لأبكيكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة، ما سعى الخلائق بيوم قط أكثر فيه عورةً بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة^(٣).

(١) ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج ١ ص ٨٦، القاهرة، مؤسسة قرطبة، سنة ١٩٨٧ م.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ٣٤٠.

(٣) الإمام أحمد، الزهد، ص ٢٥٨.

فكانت الصدور تنشرح على هذا الكلام، وتثور في القلوب معاني الحياة لتعيش واقعا يحكيه البصري، وتشرذم من أفصاص صدورها، لتسرح في تلك الحقيقة عائدة بالمدامع تتصبب من سماء عيونها، إن البصري كان الحزن مرتسما في صفاح حاله .

ولعل تفسير حزنه الدائم كان بسبب نظريته في الزهد، ويبدو أن طبيعة شخصية الحسن أيضا تميل إلى الحزن، إذ يتذكر الموت دائما لكي يحثه على طاعة الله والخوف منه، ومما ساعد على سمة حزنه، انكبابه على التفكير في المصير المحتوم، وانشغاله الدائم في المقارنة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى بعد البعث^(١) .

ولعل شدة حزنه كانت دافعا ليغوص في عمق القلوب، ويتعرف على عللها، حتى ذاعت سيرته في الآفاق، فبينما شاب يمر عليه وقد بدت عليه بزة^(٢) له حسنة، فدعاه فقال له :

ابنُ آدمَ معجبٌ بشبابه محبٌ لشبابه، كأن القبر قد وارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك، داو قلبك، فإن مراد الله من العباد صلاح قلوبهم^(٣) .

كما سلك البصري في دروب القلب، وترجم عن مقصد قول الله تعالى : ﴿وَيَذَعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء] قال : معناه : الخوف الدائم في القلب^(٤) ، وقال في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

(١) د. مصطفى حلمي، الزهاد الأوائل، ص ١١٣ .

(٢) البزة : هي الهيئة والمظهر .

(٣) الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ٣٥٩ .

(٤) عبد الله بن المبارك، الزهد، ص ٥٥، طبعة دار الكتب العلمية .

[المؤمنون] كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا لذلك الجناح^(١).

النقطة الثانية : علم النفس :

أدرك الإمام البصري أن للنفس آفات طبعت عليها وابلًا من الرذائل، وأكسبها من ذميم الصفات ما يدفعها إلى التهلكة، ويلقى عليها هالات من القبح الذميم كاتباع الهوى، والطمع والمعصية، كما تحدث عن فطام تلك النفس، لتصل إلى الورع عن طريق الرياضة والمجاهدة والمتابعة بالمحاسبة، فقال ﷺ في حال المؤمن مع نفسه :

لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردت بكلمتي؟، ماذا أردت بأكلتي؟^(٢).

كما ذكر البصري خطورة أهواء النفس إذا أصابت القلوب، ومدى دوى ذلك في عالم الباطن، وما تودى إليه من خراب حيث يتولد عنها ظلام النفاق، يقول الإمام : الهوى شر داء خالط قلباً^(٣)، وقال : المنافق مشرك، إنه عبد هواه، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان]^(٤).

ولما كان اتباع الهوى مرضًا في النفس، رأى الإمام الحسن أن مجانية أهل هذا المرض مدعاة للسلامة؛ لأن مجالسة أصحابه قد تصيب بالعدوى، فكأنه ينظر

(١) الحافظ السيوطي، الدار المنثور، ج ٦ ص ٨٤.

(٢) ابن أبي الدنيا، محاسبة النفس، ص ٢٦، إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، لابن قيم الجوزية، ص ٩٦، دار المعرفة، بيروت.

(٣) عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، السنة، ج ١ ص ١٣٨، رقم ١٠٥، دراسة وتحقيق : محمد سعيد القحطاني، دار رمادي للنشر، طبعة ثانية، سنة ١٩٩٤ م.

(٤) الشيخ . محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج ٦ ص ٣٣٠، مكتبة ابن تيمية، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٨ هـ.

إليه كمرض عضوى معدي بل أشد، ومن نصائحه في ذلك : لا تجالسوا أصحاب الأهواء، ولا تجادلوه، ولا تسمعوا منهم^(١)؛ لذلك عدَّ جهاد الهوى أعلى درجات الجهاد حين قال : أفضل جهاد جهاد الهوى^(٢) .

ولقد طافت الأنوار في عين ذات الإمام، وراح يضع حلولاً يخمد بها ثورة النفس وطمأها الذي لا يروى، ونهمها الذي لا يشبع، فحل مشكلة الطمع النفساني بالورع الروحاني حين سُئل عن ملاك الدين ؟، فقال : الورع، فقيل : فما آفته ؟ قال : الطمع، لذلك قال : الفقيه الورع الزاهد المقيم على سنة محمد ﷺ الذي لا يسخر بمن أسفل منه، ولا يهزأ بمن فوقه، ولا يأخذ على علم الله ﷻ خطأً^(٣) .

النقطة الثالثة : العلوم الروحية :

فتح البصري نوافذ قلوب البصريين - وغيرهم - في وجه نور العلوم الروحية التي تأخذ الأفتدة إلى معالم القرب من الله، فسلك طريق معرفة الله تعالى كباب للوصول إلى حبه، كما أفصح عن العلائق الشهوانية، والعوائق النفسانية التي تعطل مسيرة المعرفة الروحية أثناء ذكره مدى التعارض بين تلك المعرفة، وبين الاشتغال بالنفس لما قال :

مَنْ عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته، وذُهل عن ربه وخالقه، فلم يعرفه حق معرفته وقَصَرَ نظره على شهواته ومحسوساته^(٤) .

(١) سنن الدارمي، ج ١ ص ٥٨ .

(٢) الإمام الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ٤١، طبعة دار الريان، طبعة أولى، سنة ١٤٠١ هـ .

(٣) ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج ٢ ص ٤٥ .

(٤) الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٤ ص ٣١٣ .

إن الإمام الحسن البصرى أخذ بأيدي الحيارى إلى سر وجودهم وأصل حياتهم، إنه العبودية سبيل الترقى بالروحانية، ففى صيحة صارخة، وحرقة ممزقة، وكأن نور الخوف على نفسه وإخوانه من الجموح بعيداً عن روحيتهم إلى دنيا أو شهوة أو نزوة يرضونها، كان هذا النور ينسكب فى وجدانه ويشرق فى فؤاده، وينطق به لسانه قائلاً :

صاحب الدنيا بجسدك، وفارقها بقلبك، وليزدك إعجاب أهلها بها زهداً فيها، وحذراً منها، فإن الصالحين كذلك كانوا، واعلم أنك تطلب أمراً عظيماً لا يقصر فيه إلا المحروم الهالك، فلا تركب الغرور وأنت ترى سبيله، ولا تدع حظك وقد عرض عليك ^(١) .

إن الإمام أخذ أعنة القلوب إلى حقيقة الأمر العظيم الذى تطلبه وهو العبودية الصادقة طلباً لحياة روحية، وبعيداً عن المادية المهلكة المنعوتة بالغرور .

الإمام البصرى يتذرى ^(٢) سنام الزهد :

خرج البصرى من طرق شهواته إلى طريق زهده واستراحت نوازعه وخواطره فيه، فشد فيه راحلته دون رجوع، وإننا لتأخذنا الدهشة والعجب حين يلقى علينا بيانه الذى سطره فى جو زهده المقمر، قال :

إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه، فيقول : والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بينى وبينك ^(٣) .

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٤١ بتصرف .

(٢) يتذرى: يعلو، والسنام : ظهر البعير .

(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٦١٣ .

وقال في خلاصة وإيجاز : من عرف ربه تبارك وتعالى أحبه، ومن أبصر الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو، وإذا فكر حزن^(١).

وكان زهد الإمام البصري يشوبه الانتظام، ويبعد عن الحرمان، فكان يتغذى الخبز واللحم ويشترى كل يوم لحماً بنصف درهم^(٢)، دون إسراف أو استجابة لتهادي نفسه في الطلب، وذلك حد الاعتدال في الزهد، فهو ينحصر بين العطاء والإمساك .

أجنحة التقوى الثلاثة نظير بالبصري :

لقد طار الإمام الحسن من عالم الفرحة بالحزن، ومن عالم السكينة بالخوف، ومن عالم الضحك بالبكاء، طار بهذه الأجنحة الثلاثة الحزن والخوف والبكاء من عالم التدنى والاشتغال بمتع الدنيا، إلى عالم الترقى والانشغال بالمصير في الآخرة، وبينما هو في حال الخوف من المصير، وقد راحت فرحته، وإذا سأله عن ذلك أجاب :

لقد فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فرحاً^(٣).

وكان الحسن البصري كثير الردع لنفسه بآيات القرآن حتى يذهب ضحكه بالبكاء، إنه كان يبكي حتى ينحدر الدمع على لحيته^(٤).

إن جو القرآن والتدبر الذي عاش فيه الإمام كان مدعاة للخوف، الحزن والبكاء، إنه أقسم بالله قائلاً : لئن قرأت القرآن، ثم آمنت به ليطولن في الدنيا

(١) الإمام أحمد، الزهد، ص ٢٧٩ .

(٢) د . محمد مصطفى، الزهاد الأوائل، ص ١٠٩ .

(٣) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ٢٧٦ .

(٤) الإمام ابن سعد، الطبقات، ج ٧ ص ١٧٥ .

حزنك، وليشتدن فی الدنيا خوفك، وليكثرن فی الدنيا بكاؤك^(١)، وقد طبع ذلك على سائر أحواله حتى قال :

إن المؤمن - والله - ما يصبح إلا حزينًا ولا يمسي إلا حزينًا، وإن ضحك المؤمن إنما هو غفلة منه، وإن المؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا فكر حزن .

وبات الحسن البصرى عند على بن زيد فبات ليلته باكيًا، قال : فلما أصبحنا قلت : يا أبا سعيد لقد أبكيت الليلة أهلنا .

قال : يا على، إني قلت : يا حسن (يعنى نفسه) ، لعل الله نظر إليك فقال : اعمل ما شئت فلست أقبل منك شيئًا^(٢) .

لقد عاش الإمام الحسن جواً من الرهبة لا تطول فيه فرجة السكينة، فقد ضبط نفسه بضوابط لا فكاك منها، وهكذا كانت حياته .

وقد أجمع العلماء على أن الحسن كان جامعاً للعلم والعمل، عالماً، رفيعاً، فقيهاً، ثقة، مأموناً، عابداً، زاهداً، ناسكاً، كثير العلم والعمل، فصيحاً، جميلاً، وسيماً، وقدم مكة فأجلس على سرير، وجلس العلماء حوله، واجتمع الناس إليه فحدثهم إلى أن لقي الله تعالى عن ثمان وثمانين سنة عام عشر ومائة في رجب منها^(٣) .

رحم الله إمامنا سيدنا الحسن، وكساه بحسنه وإحسانه حُلَى الحُسن، وألحقنا به في أعلى فراديس الجنان، وغفر لنا وله ما طواه العُمر والزمن .



(١) الإمام أحمد، الزهد، ص ٢٥٩ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ بتصرف .

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٨٨ .

خامسًا : مدرسة اليمن الزهدية

كانت اليمن كغيرها من الأمصار فى أخذ النصيب الوافر من الحياة الروحية، فسفرء تلك الحياة من الصحابة والتابعين قد انتشروا فى سائر الأقطار، وإن اختلف طابع هذه الأمصار عند تلقى الفكرة الروحية إلا أنها تتلاقى فى مصدرها الواحد.

وكان على رأس التابعين والرواد فى مدرسة اليمن الزهدية .

الإمام طاوس بن كيسان .

والإمام وهب بن منبه .

١ - أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان

العارف بربه، الهائم بحبه، الذاكر بذنبه، طاؤس بن كيسان اليماني، من أكبر أصحاب ابن عباس، أول طبقة أهل اليمن من التابعين، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن، أدرك جماعة من الصحابة، وروى عنهم، وكان أحد الأئمة الأعلام، جمع العبادة والزهادة، والعلم النافع، والعمل الصالح، وقد أدرك خمسين من الصحابة، وأكثر روايته عن ابن عباس، وروى عن خلق من التابعين وأعلامهم، منهم مجاهد وعطاء والزهرى، ووهب بن منبه^(١) .

توكل طاوس معارج الزهاد، وتذرى سنام الزهد، وقد جاء ابن لسليمان بن عبد الملك (أمير المؤمنين) فجلس إلى جنب طاوس فلم يلتفت إليه، فقل له :
جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ؟

(١) الإمام ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٥ ص ٨، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥ ص ٣٨.

قال : أردت أن يعلم أن الله عبادًا زهادًا يزهدون فيما بين يديه .

وقيل : ما رأيت أحدًا أشد تنزهًا مما في أيدي الناس من طاوس، وكان طاوس يفرش فراشه ثم يضطجع فيتقل كسما تتقل الحبة في المقل، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح^(١).

وقد جعل هذا الزهد طاوسًا ذا بصيرة ثاقبة، كشفت عنها كنوز مقاله الزاخر برجاحة العقل وإرهاف الضمير، فوقر في وجدانه حب التورع وكانت لا تهفو نفسه إلى الدنيا، فقد تحلى بالطهر عن رذائلها، وراح يرهب الناس من حب المال وكنزه، فجلس لديهم واعظًا يقول :

بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعًا يتبع صاحبه ، وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك، لا يُدرك منه شيئًا إلا أخذه^(٢).

وقد أقام طاوس نظريته في الورع على مثال صاغه، حتى يأخذ الأفهام إليه بهالة من العظة تقطع علاقتهم بشهوات الدنيا، وتنزع عن قلوبهم خلعة العبودية لغير الله تعالى، فيكونوا أحرارًا وينعموا بمناجاة الواحد القهار، وقد أخذهم الخشوع دون حجب الشواغل الدنيوية، فها هو طاوس يجمع طلابه ليملى عليهم نظريته في الورع فقال :

مثل الإسلام كمثل شجرة، فأصلها الشهادة، وساقها كذا وكذا، وورقها كذا - شئء سباه - وثمرتها الورع، لا خير في شجرة لا ثمر لها، ولا خير في إنسان لا ورع له^(٣).

وكما غمر الورع جوانح طاوس ، فاض قلبه كذلك بالزهد، حتى جلس

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ بتصرف .

(٢) موسوعة فضرة النعيم، إعداد نخبة من العلماء، ج ١١ ص ٥٢٠.

(٣) إسناده صحيح، انظر : ابن أبي الدنيا في الورع، ص ١٠٩ .

إلیه الناس وألقوا أسماهم إلیه ، وفتحوا قلوبهم لمقاله ، وملكوا أبصارهم فی حاله .

وقد قال له عمر بن عبد العزیز : ارفع حاجتك إلی أمير المؤمنين سلیمان بن عبد الملك .

فقال طاوس : ما لی إلیه حاجة ^(١) .

إنه زهد عن التقرب للأمرء مع أنه كان ذائع الصیت بعلمه وصلاحه لديهم ، فلن یردوه فی حاجة أبداً .

وكشف طاوس عن علمه وحكمته ، وهرع مغتبطاً لیعلنه علی طلابه ، وقد ملأت الرغبة فی رضا الله قلبه واستولت علی تفكيره ، مما جعله یرنو إلی الصدارة علی أقرانه ، وقد أشعر عن نزاهته وحنكته حین وضع نظریة العلم وقانونها : ما یحیل العلم فی مثل جراب العلم ^(٢) .

فالحماقة حسب نظریته تفسد العلم وتبطل سمات صلاحیته .

وبقیة کلمات الإمام طاوس ترنو فی کل زمان حتی یعتبر کل ذی قلب سلیم ، وکی یقتدی کل ذی علم حلیم .

وقد توفي الله تعالى طاوساً بمكة قبل یوم الترویة بیوم ، سنة ست ومائة عن عمر یناهز التسعین سنة .

وعن ضمرة بن شوذب قال : شهدت جنازة طاوس بمكة سنة ست ومائة فسمعتهم یقولون : رحمك الله أبا عبد الرحمن ، حج أربعین حجة - رحمه الله ^(٣) .

(١) الإمام أحمد ، الزهد ، ص ٣٧٦ .

(٢) سنن الدارمی ، ج ١ ص ١٥٢ ، برقم ٥٧٨ .

(٣) ابن الجوزی ، صفة الصفوة ، ج ١ ص ٣٨٥ .

٢ - أبو عبد الله وهب بن منبه

المشمر للمهاد، المقدم بالعتاد للمعاد، المتجلى بسلوك الزهاد والعباد وهب بن منبه اليماني، تابعي جليل، له معرفة بكتب الأوائل وله صلاح وعبادة، ويروى عنه أقوال حسنة، وحكم، ومواعظ، أدرك عدة من الصحابة، وأسند عن ابن عباس وجابر والنعمان بن بشير، وروى عن معاذ بن جبل وأبي هريرة وطاوس، وروى عنه كثير من التابعين.

ومن أقواله : مثل من تعلم علمًا لا يعمل به، كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به .

وروى أن رجلًا أتاه بوشاية قائلاً: إني مررت بفلان وهو يشتك، فغضب وقال : ما وجد الشيطان رسولًا غيرك^(١).

وقال وهب - وقد بزغ الخوف منه، والموعظة أشرفت من قلبه :

كُسى أهل النار والعري كان خيرًا لهم، وطعموا والجوع كان خيرًا لهم، وأعطوا الحياة والموت كان خيرًا لهم^(٢).

وصمد وهب أمام فتن الدنيا، وزهد عنها كصمود الطود لا تزعزعه العواصف، ولا تنال من عزيمته الشهوات، ولا تشغله عن تأييد روحه شواغل نفسه ؛ لأنه ارتضى أن تكون حياته لله، ومن كان لله لا يشغل عنه بما

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٥٤٣ . وأبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٤ ص ٢٣، والإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٥٤٤ .

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٩٩ .

سواء، فقال والعواطف الرقيقة الحانية من فؤاده تغمر روحه بالسعادة والحذر في آن واحد :

أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا، وأسرعها ردًا اتباع الهوى،
وحب المال والشرف، ومن حب المال والشرف تنتهك المحارم، ومن انتهاك
المحارم يغضب الرب، وغضب الله ليس له دواء^(١).

وقال واعظًا لعطاء الخراساني :

ويحك يا عطاء ، ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك، وأبناء الدنيا،
وأبواب الأمراء ؟

ويحك يا عطاء، ألم تأت من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويوارى عنك
غناه، وترك باب من يقول ﴿ اَدْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ؟

ويحك يا عطاء، إن كان يغنيك ما يكفيك، فأوهى ما في الدنيا يكفيك، وإن
كان لا يغنيك ما يكفيك، فليس في الدنيا شيء يكفيك.

ويحك يا عطاء ، إنما بطنك بحر من البحور، وواد من الأودية لا يملؤه
شيء إلا التراب^(٢).

وقد بلغ ابن مُنبّه في العبادة مبلغًا عظيمًا يفصح عن الرجل ما ملأ به لياليه
من نحيب وبكاء، وما فاض في أوعيتها من مدامع، إنه - كما ورد عنه .

كان كثيرًا ما يصلي الصبح بوضوء العتمة، أي : قيام الليل، حتى قيل : لبث
وهب عشرين سنة لم يجعل له بين العشاء والصبح وضوءًا^(٣).

(١) الحافظ المزي ، تهذيب الكمال، ص ١٤٨٤ .

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٩٩ .

(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٨٧ بتصرف .

ومن حكم وهب التي تعد من فصوص جوامع الكلم قوله :

ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم.

ولا فهم امرؤ إلا علم.

ولا علم . امرؤ قط إلا عمل^(١).

وأعجبني قوله عن الدنيا والآخرة:

مثل الدنيا الآخرة مثل ضرتين، إن أرضيت إحداهما، أسخطت الأخرى^(٢).

وهكذا عاش ابن منبه حياته يثرى القلوب بسبائك الحكم، ويُجلى الصدور

بنقاوة الزهد وحفاوة الخوف، إلى أن توفي بصنعاء سنة عشر ومائة وقيل :

بعدها بسنة^(٣).

رحم الله وهبًا، خير من أنقى قلبًا، وأحسن من أعمل لُبًا .

(١) الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ٤٣٩ .

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣١١ .

(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٨٨ .

سادساً : مدرسة مصر الزهدية

منذ أن فتحت مصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصحابة رسول الله ﷺ ترى عليها، فقد جاء إليها عمرو بن العاص، وابنه عبد الله، والزيير بن العوام، والمقداد بن الأسود^(١) وغير هؤلاء الكثير.

وكان الزهد يعتلج بتلك القلوب اقتداءً واتباعاً، ومنهجاً أخذوا به أنفسهم، ودرباً سلكوه.

ومن هنا يمكن القول بأن هذه المدرسة شبيهة بمدرسة الزهد في المدينة، سلفية المنزع عميقة المأخذ، وقد تبع هؤلاء الصحابة الوافدين على مصر الكثير من أهلها، ساروا خلفهم سالكين لله طريقاً يبتغون به وجه الله تعالى، ومن هؤلاء السالكين^(٢):

- حيوة بن شريح .

- الليث بن سعد .

- ذو النون المصري .

١ - حيوة بن شريح

صاحب الخلوة، حاضر الجلوة، الزاهد الورع حيوة بن شريح المصري، كان عامر القلب بالذكر، صافي الروح، بعيداً عن كدر الشهوات، دائم الحزن والبكاء، عرف نفسه فلزم العبودية في سائر أحواله، ومن عرف نفسه عرف

(١) د . أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص ٩٣، د . محمود أبو الفتوح السيد، أوائل الزهاد، ص ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق نفسه والصفحة.

ربه، وعرف ما يراد منه، فأشغل نفسه، واستعملها فيما خلقت له، فأوقفها في مواقف العبودية للقيام بحقوق الربوبية، ومتى اشتغلت بمعارضة الربوبية فاتتها العبودية ولم تدرك الربوبية^(١).

عاش حياة صاحب دعاء دائم، ومن البكائين، وكان ضيق الحال جدًّا^(٢).

وكان حياة يحب الخلوة، فاز بأعلى درجات الغنى في خلوته مع الله تعالى، ففاض على قلبه صدق التوجه أنوارًا، فجعل له الله تعالى أنوارًا في شعوره، فاستغنت نفسه بذلك .

قال خالد بن الفزار : جلست إلى حياة ذات يوم وهو مُحْتَلٍ وحده يدعو، فقلت : رحمك الله، لو دعوت الله ﷻ فوسع عليك في معيشتك.

قال : فالتفت يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا، فأخذ حصاة من الأرض، فقال : اللهم اجعلها ذهبًا.

قال : فإذا هي تبرة في كفه ما رأيت أحسن منها.

قال : فرمى بها إلى وقال : ما خير في الدنيا إلا الآخرة، ثم التفت إلى وقال : هو أعلم بما يصلح عباده.

فقلت : ما أصنع بهذه ؟ قال : أستنفقها^(٣).

وكان حياة من الثقات في الرواية، قال أبو زرعة : سمع من عقبة بن مسلم، وروى عنه الليث بن سعد^(٤).

رحم الله حياة، ورقى منزله وألحقنا به في رياض الصالحين .

(١) العز بن عبد السلام، زيد خلاصة التصوف، المسمى بحل الرموز، ص ٥٢، دار الحسين.

(٢) الخافظ المزى، تهذيب الكمال، ج ٧ ص ٤٧٨.

(٣) الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦ ص ٤٠٤.

(٤) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٧٥.

٢ - أبو الحارث الليث بن سعد

الفقيه الورع، صاحب المآثر الذهبية، والأحوال النقية، الليث بن سعد، المكنى بأبى الحارث، ولد سنة ثلاث وتسعين، واستقل بالفتوى والكرم بمصر.

قال أبو صالح : كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا، فقلنا : ليس يشبه صاحبنا.

قال : فسمع مالك كلامنا فأدخلنا عليه، فقال لنا : من صاحبكم ؟ فقلنا : الليث بن سعد.

فقال : تشبهوننى برجل كتبنا إليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا، وثياب جيراننا فأنفذ إلينا ما صبغنا به ثيابنا، وثياب صبياننا، وثياب جيراننا، وبعنا الفضلة بألف دينار^(١).

أسند عليه السلام عن خلق كثير من التابعين ، كعطاء، ونافع ، وأبى الزبير، والزهرى ، وقيل : إنه أدرك نيّفاً وخمسين تابعياً^(٢).

كان الليث جواداً عطاء، لا يأبه بالمال، كثير النفقة على المساكين والفقراء، وكان دائماً فى مواقف الجود صاحب اليد العليا.

فقد روى عنه أنه وصل ثلاثة أنفس بثلاثة آلاف دينار : احترقت دار ابن لهيعة فبعث إليه بألف دينار، ووصل منصور بن عمار بألف دينار، وحج

(١) الإمام أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ٧ ص ٣١٨.

(٢) الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٨ ص ١٣٦.

فأهدى إليه مالك بن أنس رطباً على طبق فرد إليه على طبق ألف دينار، وقال :

لا يسمع بهذا ابنى فتهون عليه، فبلغ ذلك شعيب بن الليث فوصله بألف دينار إلا دينار، وقال: إنما نقصتك هذا الدينار لثلاث أساوى الشيخ فى العطية.

وروى أن دخل الليث فى كل سنة ثمانين ألف دينار، وما وجب لله تعالى عليه زكاة قط، فكان يحول عليه الحول وعليه دين^(١).

إن المال الذى كان فى حوزة الليث ليس له، والزكاة تجب على القادر، والليث كان ينفق ماله فى سبيل الله ولا ينتفع من ماله إلا بالقليل .

هكذا اتصف الليث بالعطاء، والفقه والورع، بعيداً عن حب الدنيا والطمع، إلى أن توفاه الله تعالى يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان من سنة خمس وسبعين ومائة ، ودفن يوم الجمعة^(٢).

رحمه الله ورضى عنه .

(١) الحافظ المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤ ص ٢٥٥.

(٢) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٧٨.

۳- أبو الفیض ذو النون المصری

جلس العارفين، ومضيف المساكين، وإمام البكائين، ثوبان بن إبراهيم،
وقيل: ابن الفیض بن إبراهيم، أبو الفیض المصری، أحد المشايخ
المشهورين^(۱).

أصله من النوبة، وكان من قرية من قرى صعيد مصر يقال : لها إخميم،
فتزل مصر .

لقب بذی النون، وكان أبوه مولى لإسحاق بن محمد الأنصارى، وكان له
أربعة بنين : ذو النون، وذو الكفل، وعبد الباری، والهميسع .

أسند أحاديث كثيرة عن مالك، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة،
والفضيل بن عياض، وابن لهيعة وغيرهم .

وقد رُوى ذو النون على ساحل البحر، فلما جن الليل خرج فنظر في السماء
والماء، فقال : سبحان الله ! ما أعظم شأنكما، بل شأن خالقكما، أعظم منكما
ومن شأنكما، فلما تهور الليل لم يزل ينشد هذه الأبيات إلى أن طلع عمود
الصباح :

أطلبوا لأنفسكم	مثل ما وجدت أنا
قد وجدت لى سكناً	ليس فى هواء عنا
إن بعدت قرينى	أو قربت منه دنا ^(۲)

(۱) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ۱۰ ص ۳۸۸.

(۲) الإمام أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ۹ ص ۳۳۱، وابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ۲ ص ۸۷۹.

بلغ بعلمه وزهده وحسن سمته مبلغاً يرنو به إلى الصدارة على أقرانه، لم تعترضه عوائق المطامع والأهواء، له حكمة في حديثه، وله حنكة في تصويره، قال في الزهد والإيثار قولاً ملك به الأبواب، له نظرية عظيمة تعد مفتاحاً في السلوك، وهدياً للزهاد، أدلى بها عندما سُئل : ما حد الزاهد المنشرح صدره ؟

فقال : ثلاث : تفريق المجموع (أى : توزيع المال المخزون) ، وترك طلب المفقود (الفانى) ، والإيثار عند القوت ^(١).

وقد تغير حال ذى النون لما رأى تهافت العلماء على فئات المادة المتساقط من موائد الدنيا، وراح يندب ويرثى هؤلاء، ويبكى على من راح من المخلصين من العلماء، فقد بقيت سيرتهم تفوح عبْقاً في نفسه، وإن غابت أجسادهم من الدنيا، قال - رحمه الله :

كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بُغْضاً للدنيا وترْكاً لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حباً وطلباً، وكان الرجل يُنفق ماله على العلم، واليوم يكتسب الرجل بعلمه مالاً، وكان يُرى على طالب العلم زيادة صلاح في باطنه وظاهره، فاليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر ^(٢).

ومن كلامه الذى غزا به القلوب، وفتح به مسامعها، وصب فيها من حكمته قوله :

من ذبح حنجرة الطمع بسيف البأس، وردم خندق الحرص، ظفر بكيمياء الخدمة، ومن استقى بحبل الزهد على دلو المعروف، استقى من جب الحكمة،

(١) الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨ ص ٢٠.

(٢) العلامة ابن الحاج العبدلي، المدخل إلى الشرع الشريف، ج ٢ ص ١٢٦، طبعة دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٧م.

ومن سلك أودية الكمد، جنى حياة الأبد، ومن حصد عشب الذنوب بمنجل الورع، أضاءت له روضة الاستقامة، ومن قطع لسانه بشفرة الصمت وجد عذوبة الراحة، ومن تدرع درع الصدق، قوى على مجاهدة عسكر الباطل، ومن فرح بمدح الجاهل ألبسه الشيطان ثوب الحماسة^(١).

وأعجبني قوله رحمه الله تعالى :

لم أر شيئاً أبعث لطلب الإخلاص مثل الوحدة؛

لأنه إذا خلا لم ير غير الله، فإذا لم ير غير الله، لم يحركه إلا حكم الله، ومن أحب الخلوة، فقد تعلق بعمود الإخلاص^(٢).

ولما حضرته الوفاة وسئل عن حاله ، قال :

أموت وما ماتت إليك صبايتي	ولا رويت من صدق حبك أوطاري
منأى المنى كل المنى أنت لى منى	وأنت الغنى كل الغنى عند إقتارى
وأنت مدى سؤلى وغاية بغيتى	وموضع آمالى ومكنون إضمارى
تضمن قلبى منك مالک قد بدا	وإن طال سرى فيك أو طال إظهارى
وبين ضلوعى منك ما لا أبشه	ولم أبد باديسه لأهل ولا جار
سرائر لا يخفى عليك خفيها	وإن لم أبح حتى التنادى بأسرارى
فهب لى نسيما منك أحيأ بروحه	وجد لى بيسر منك يطرد إعسارى
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن	من العلم فى أيديهم عشر معشار
وعلمتهم علماً فباتوا بنوره	وبانت لهم منه معالم أسرار
معانينة للغيب حتى كأنها	لما غاب عنها منه حاضرة الدار
وأبصارهم لها الهم المفرق والتقى	على قَدَرٍ والهم يجرى بمقدار

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٨١.

(٢) الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١ ص ٥٣٢، وأبو نعيم، الحلية، ج ٩ ص ٣٢١.

جمعت لها الهمم المفرق والتقى
 ألفت دليل القوم إن هم تحيروا؟
 ومالى سوى الإطراق والصمت حيلة
 وإن طرقتنى عبدة بعد عبدة
 أفضت دموعاً جمة مستهلة
 فيما تنتهى سؤال المحبين كلهم
 ولست أبالي فائتاً بعد فائت
 على قسدر والهمم يجرى بمقدار
 وعصمة من أمسى على جرف هار
 ووضعى على خدى يدي عند تذكاري
 تجرعتها حتى إذا عيل تصباري
 أطفئ بها حراً تضمن أسرارى
 أبحنى محل الأنس مع كل زوار
 إذا كنت فى الدارين يا واحدى يا جارى^(١)

وتوفى - رحمه الله تعالى - بالجيزة ، وحمل فى مركب إلى القسطنطينية خوفاً عليه من زحمة الناس على الجسر، ودفن فى مقابر أهل المعافر، وذلك فى يوم الاثنين ليلتين خلتا من ذى القعدة من سنة ست وأربعين ومائتين ، وقيل : ثمان وأربعين ومائتين^(٢).

رحم الله الشيخ الزاهد والورع العابد شيخ الصالحين ذا النون المصرى .



(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٨٢.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها ، والبداية والنهاية، لابن كثير، ج ١٠ ص ٣٨٨.

سابعاً : مدرسة الشام الزهدية

مع أن بلاد الشام تقترب من بلاد الروم ومعاقل المسيحية، حيث إنها تقع فى الطرف الشمالى من الجزيرة العربية، إلا أنها فى جانبها الزهدى لم تتأثر بالرهبة المسيحية، وإن وجد فيها بعض الفرق المعادية لسيدنا على بن أبى طالب، وشرذمة من القدرية، وبعض من الشيعة، راح أهل السنة جاهدين لتبسيط نفوذهم، وإيقاف مدهم . مستمسكين بسيرة الزهاد الأوائل، وعلى رأسهم .

عمر بن عبد العزيز . وأبو سليمان الداراني .

١ - الأمير الزاهد أبو حفص عمر بن عبد العزيز

الساهر البكاء، المنفق فى الخفاء، الأمير الزاهد أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص، أمير المؤمنين، أمه أم عاصم ليل بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

كان تابعياً جليلاً، روى عن أنس بن مالك، والسائب بن زيد وغيرهما، وروى عن كثير من التابعين، بويع بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك، عن عهد منه بذلك .

قيل إنه ولد سنة إحدى وستين، وقيل : سنة ثلاث وستين، وقيل : تسع وستين، على خلاف بين العلماء^(١) .

(١) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٣ ص ٨٨، وابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢٤٦ .

سلك طريق الزاهدين، وذهبت نفسه شعاعاً من خشية الله، أقام الليل حتى أنحلَّ السُّهد^(١)، وبرى الشوق عظمه، صار أليف شجن^(٢)، لما بويع بالخلافة .

إنه دخل المسجد ، وصعد المنبر ، واجتمع الناس إليه فقال :

يا أيها الناس ، إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه، ولا طلبه له، ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم.

فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فَلَ باليُمن والبركة.

فلما رأى الأصوات قد هدأت، وأن القوم مصرون على توليته، صلى على رسول الله ﷺ وأوصاهم بتقوى الله، والعمل للأخرة ، والزهد عن الدنيا وتذكر الموت، ولما نزل دخل، فأمر بالستور فهتكت، والثياب التى كانت تُبسّط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها، وإدخال أثانها فى بيت مال المسلمين^(٣).

ولما استقرت الخلافة باسمه، انقلب وهو مغتم مهموم، فالخلافة سلبت فرحة فؤاد، وأصبح بها كَلِف العقل والفكر، فلما سأله موله عن هذه الحال المليئة بالعبرات قال : ويحك ، ومالى لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبنى بحقه أن أوّديه إليه .

إنه شرد مشغولاً عن امرأته فاطمة ، حتى قالوا : إنه خَيَّرَها بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جوارياها لبكائها، فسمعت ضجة فى داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال - رحمها الله .

(١) السُّهد : السهر.

(٢) هم وحزن.

(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٠٨.

إنه شرد مشغولاً عن امرأته فاطمة ، حتى قالوا : إنه خيّرهما بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جواريا لبكائها، فسمعت ضجة فى داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال - رحمها الله .

وقال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين، فأنشأ يقول :

قد جاء شغل شاغل وعدلت عن طريق السلامة

وذهب الفراغ فلا فراغ لنا إلى يوم القيامة^(١)

هكذا ثققلت أعباء الإمارة على سيدنا عمر بن عبد العزيز، إنه أصبح قلق الحال، يصرف وجهه فى آفاق السماء والأرض، فلا ينظر فى ناحية إلا رأى فيها رعية، فازداد همه، وتثقال غمه .

عَبَرَات^(٢) عمر تسطر زهده :

راح أمير المؤمنين يقص على رعيته آلام الجوى التى تملؤه وقد تبدت على وجهه ملامح الخوف والخشية، واكتست أحواله بصفات الزهد والرغبة، إنها آلام الحقيقة التى كشفت عن وجه الدنيا لثام الفناء، وأرقت لديه العقل والأعضاء، وشغلته بحين اللقاء، إن أمير المؤمنين لم يتوان عن خطبة صارخة فى الناس توقد فيهم مجامر الزهد والرفعة، فصعد المنبر وقال :

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين^(٣)، ثم يرثها بعدكم الباقون كذلك ، حتى يُردَّ إلى خير الوارثين، وفى كل يوم تُشيعون غادياً ورائحاً قد قضى نحبه ،

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢١١-٢١٢.

(٢) عبرات : دموع.

(٣) أسلاب الهالكين: أى المجموع بالورثة ممن ماتوا.

فتودعونه وتدعونه في صدع من الأرض غير ممهد ولا موسد^(١)، قد فارق الأحباب وخلع الأسباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، غنيا عما خلّف، فقيرا إلى ما قدم، وأنشد قائلا :

من كان حين تصيبُ الشمسُ جبهتهُ أو الغبار يخاف الشين^(٢) والشعنا^(٣)
ويألف الظل كي تبقى بشاشته فكيف يسكن يوما راغما جدنا؟^(٤)
في ظل مُقفرة^(٥) غبراء^(٦) مُظلمة يُطيلُ تحت الثرى في غمّه اللبنا
تجهزى بجهازٍ تبلغين به يا نفس قبل الردى^(٧) لم تُخلقى عبثا^(٨)
إنه عَدَمُ النوم والصبر والهنا، وفارق إلغا كان منه مدانيا، فقد زاد شغله بلقاء الله تعالى .

ومن كلامه في استصغار الدنيا :

بينما ابن آدم في الدنيا ينافس، قرير العين فيها يانع، إذ دعاه الله بقدره ورماه بسهم حتفه، فسلبه أثارة^(٩) دنياه، وصير إلى قوم آخرين مصانعه ومغنائه، إن الدنيا لا تُسر بقدر ما تضر، تسر قليلا وتُحزن طويلا^(١٠).

(١) أي : بلا فراش ولا وسادة ولا إعداد.

(٢) الشين : العيب والقبح.

(٣) من شعث الشعر شَعْنَا وشعوتة : اغبر وتبلد، وشعث البدن : أى اتسخ.

(٤) الجَدَث : مفرد أجداث وهو القبر.

(٥) مقفرة : أرض خالية.

(٦) الغبراء : الأرض.

(٧) الردى : اهلاك.

(٨) ابن رجب الحنبلي، أحوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، ص ١٥١ - ١٥٢، طبعة دار الهجرة، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٧ هـ.

(٩) الأثارة : العلامة.

(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢١٢.

وقال مالك بن دينار : يقولون : مالك زاهدًا ؟ أى زهد عندى ؟! إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة^(١) فاهأ، فتركها جملة، قالوا : ولم يكن له سوى قميص واحد، فكان إذا غسلوه جلس فى المنزل حتى ييبس^(٢).

حتى إنه مرض ذات مرة ﷺ فعاده مسلمة بن عبد الملك وقال : دخلت عليه فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبد الملك : يا فاطمة، اغسلى قميص أمير المؤمنين، قالت : نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله، فقلت : يا فاطمة ، ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يعودونه ؟ قالت : والله ما له قميص غيره.

نعم .. إنه قميص واحد باثنى عشر درهما يرتديه، وتبدو أضلاعه منه بارزة، حتى قال يونس بن شبيب : ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت^(٣).

حقًا ، إننى لياخذنى العجب من حال أمير المؤمنين الذى بدت أضلاعه من ثوبه تعبر عن جوعه وزهده، إنه حال يجعلنا ندب حالنا، ونثن ضحى وعشية حتى يعلو العويل بدويه أركان الكون .

إن زهد أمير المؤمنين نتج عن خوف وحزن وبكاء من خشية الله، ترجم عنها حين خرج فى جنازة، فلما دفنت قال لأصحابه : قفوا حتى آتى قبور الأحبة فأتاهم، فجعل يبكى ويقول :

(١) فاغرة : فاتحة.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٣) ابن الجوزى ، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٠٩.

هذه قبور آبائي من بنى أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثالات، واستحكم فيهم البلاء، ثم بكى حتى غشى عليه، ثم أفاق^(١).

يا لها من حياة عقيمة ، عاشها عمر بن عبد العزيز ، ذلك الفتى الذى شب على الدلال والبذخ والطيب الذى ملأ بعبثه دروب الشام، لقد تجرد الفتى عن كل ذلك فأصاب تلك الحياة بالعقم، فلم تنجب له بعده رغداً .
الأمير تفيض روحه زاهداً :

لما كانت الصرعة التى مات فيها عمر، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لا شىء لهم، فلو وصيت بهم إلى ! وإلى نظرائى من أهل بيتك.

فقال أمير المؤمنين : أسندونى ، ثم قال : أما قولك ، إنى أفقرت أفواه ولدى من هذا المال، فوالله إنى ما منعتهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم ما ليس لهم.

وأما قولك : لو أوصيت بهم فإن وصيى ووليى فيهم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكراً، ونظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال : بنفسى الفتية الذين تركتهم عيلة لا شىء لهم، فإنى بحمد الله تركتهم بخير. أى بنى، إن أباكم مثَّل بين أمرين : بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا عصمكم الله .

(١)الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥ ص ١١٤ ، وابن حجر، تهذيب التهذيب، ج ٧ ص ٤٧٥ ، وأبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٥ ص ٢٥٣ .

ففاضت روحه عليه السلام زاهدًا، وكانت وفاته سنة إحدى ومائة لعشر ليال بقين من رجب، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته ستين وخمسة أشهر^(١).

رحم الله أمير المؤمنين ، وأكرمنا على سيرة بالفناء في طريق الزاهدين ،
وجمعنا وإياه في زمرة الصالحين .

(١) الإمام ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣١٢.

٢- أبو سليمان الداراني

الزاهد الورع، الذاكر الصابر أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية، وقيل : عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، وقيل : عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الداراني، أحد الأئمة العلماء العاملين .

والداراني نسبة إلى داريا قرية من دمشق، وقيل : ضيعة إلى جنب دمشق، وقد سمع الداراني الحديث من سفيان الثوري وغيره، وروى عنه أحمد بن أبي الخوارى وجماعة .

حكى عنه أنه قال : اختلفت إلى مجلس قاض، فأثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء، فعدت إليه ثانية، فأثر كلامه في قلبي بعدما قمت وفي الطريق، ثم عدت إليه ثالثة، فأثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي، فكسرت آلات المخالفات، ولزمت الطريق^(١).

وقال أحمد : انتهى أبو سليمان يوماً رغيفاً حاراً بملح، فجنّته به، فعض منه عضة، ثم طرحه، وأقبل يبكي، ويقول : يا رب، عجلت لي شهوتي، لقد أطلت جهدي وشقتي وأنا تائب^(٢).

والداراني مما عانى كثيراً من المجاهدات، متهجداً بالليل قواماً، أصبح يرى في طاعة الله لذة لا يجدها أهل اللهو بلهوهم، ولكنه متبع للسلف في مجاهداته، فلا يقبل منها إلا ما شهد بصحته الكتاب والسنة، ويعى إلى رزقه أولاً فيحصل على لقمة العيش، ثم يتعبد^(٣).

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

(٣) د. مصطفى حلمي، الزهاد الأوائل، ص ١٣٥.

وكان الداراني متيماً بحب رسول الله ﷺ والصلاة عليه حتى وصل إلى حال يمتلئ فيه جواه حرقه من شدة الوجد، ويلذع الحب شغاف قلبه، ورأى بركة الصلاة عليه عند الدعاء تحقق الإجابة من الله تعالى، قال رحمه الله :

من أراد أن يسأل الله حاجة، فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله ﷻ يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما^(١).

الداراني بين الخوف والزهد :

توجس الداراني خيفة من الآخرة، واستشعر الخشية من المصير، فأرهبه ذلك أيامه ولياليه مما أزهده في الدنيا، وظل يعمل ويكسب ويزهد فيما يكسبه، إنه صرف الرغبة عن الدنيا إلى الآخرة فجلس مع طلابه يشد من أزرهم في هذا الطريق وقال : عَوِّدُوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكير.

وقال : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب^(٢).

وقال : ينبغي للخوف أن يكون على العبد أغلب من الرجاء، فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب .

وقال : لو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعوني كاتضاعى عند نفسي ما قدروا.

وقال : من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره ومن صدق في ترك شهوة أذهبها الله من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له.

(١) الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١ ص ٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤ ص ٤٢٥.

وإذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة، وإن كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة ؛ لأن الدنيا لثيمة، والآخرة كريمة، وما ينبغى لكريم أن يزاحم لثيماً^(١).

ومع خوف الدارانى وزهده ؛ إلا أن نظريته فيها مرتبطة بمحبة الله تعالى، فقد أعلن الدارانى تمسكه بنظرية الحب والعفو والكرم الإلهى التى تنجيه من عذاب الله ﷻ، إذ يقول فى دعائه : وعزتك وجلالك لئن طالبتنى بذنوبى لأطالبنك بعفوك، ولئن طالبتنى ببخلى، لأطالبنك بكرمك، ولئن أمرت بى إلى النار لأخبرن أهل النار أنى أحبك^(٢).

بهذه الكلمات ترنم الدارانى فى رحاب الزاهدين، فتقلب بين الخوف والزهد والحب ، كى ينعم بحياة تعلوها السكينة والسياحة المطمئنة فى معارج السالكين ومدارج العارفين .

إنه حاسب تلميذه أحمد بن أبى الحوارى على تنهده، وهو عنده قائلاً : إنك مسؤول عن تنهيدتك يوم القيامة، فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك، وإن كانت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك^(٣).

على هذه الحال عاش الدارانى محاولاً مقاومة الخوف بالثقة والمحبة لله ؛ ليرد نفسه إلى طبعها الهادئ ، لتستطيع أن تسير فى ركب الزاهدين، لعله يضيف على قلبه هالة من الهدأة تخفف عنه أعباء الخوف .

وقد اختلف الناس فى وفاته على أقوال : ف قيل : مات سنة أربع ومائتين، وقيل : سنة خمس ومائتين، قال ابن الجوزى : والأول أصح، ودفن ﷺ فى قرية

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٩٠ بتصرف.

(٢) د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ١٣٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢ ص ٢٩٢.

داريا في قبلتها، وقبره بها مشهور، وعليه بناء ، وقبلته مسجد بناه الأمير ناهض الدين عمر النهرواني.

وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبي الحواري، قال : كنت أشتهى أن أرى أبا سليمان في المنام، فرأيت بعد سنة، فقلت له : ما فعل الله بك يا معلم ؟ فقال : يا أحمد ، دخلت يوماً من باب صغير، فرأيت جمل شيخ فأخذت منه عوداً، فما أدري تخللت به أو رميته، فأنا في حسابه إلى الآن ^(١).

رحم الله شيخنا الداراني ، ووسده في قبره على مهاد الصالحين ، وألحقنا به في رياض الفالحين .

هذا ، والزهاد في مدرسة الشام كثير ، كما أنهم كذلك في سائر المدارس ، وما ذكرناه ما هو إلا لمحة عابرة بنصف عين ، ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث مشكاة تنير الطريق للوصول إلى مرضاة الله ﷻ ، وخطاً مستقيماً نسلكه يأخذ بأيدينا إلى الجنة، وسلامة لقلوبنا، وتخليصاً لها بما ران عليها من صدأ المعاصي ، حتى يعود لمعانها من جديد ، تحت نور فجر إيمانى يشرق على ساحتها ، فيملاً جنباتها هدى ورحمة .



الخاتمة

من الدراسة السابقة لجانب الزهد في حياة الأوائل سواء كانوا من الصحابة أو غيرهم من الصوفية الفقهاء من التابعين، نصل إلى أن تلك الحياة الزهدية امتدت عبر التاريخ في حياة أهل التصوف المخلصين لا الدخلاء، وأن الزهد في التصوف الإسلامي رفيع عن تدنٍ أساء به بعض الدخلاء عليه، والذين كانوا سبباً رئيساً من أسباب الجدل الذي اكتظت به الساحة حتى وصل الأمر إلى الاختلاف المذموم، بين مدافع يرى في التصوف أرقى درجات الرقى الروحي، وبين معارض يمقت التصوف ويرى فيه أشد الأخطار الفكرية على الإسلام، ما أدى إلى تفرقة صف الأمة وشق عصاها للأسف الشديد، وخصوصاً في تلك الآونة بالذات، حتى ادلهمت فيها الخطوب، وحلك الظلام والحيرة في الفصل بين الحق والباطل، لذلك أثرت أن أطوى في سطور موجزة أصالة الزهد في مدرسة الصوفية الأوائل ليثبت صلة التصوف الحق بالإسلام والفطرة الإنسانية، بل هو عين الإسلام، على حد قول العلماء المنصفين، وذلك بعيداً عن أهل البدع والخرافة من الدخلاء عليه الذين يمقتهم التصوف نفسه .

وفي ذلك يقول الدكتور زكي مبارك :

إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية، بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عنه، آمنت به، واطمأنت إليه في عالم المعاني الروحية^(١)، وكى لا يآثم من ظلم التصوف بغير علم سواء كان بسبب جهل

(١) د. زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج ١ ص ١٧، طبعة دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

دخلائه أو نيل أعدائه، آثرت أن أختتم هذا البحث بتلك اللفتة العاجلة علَّها تصلح ما انكسر في جدار الفكر المعاصر بسبب ما شاب الساحة من قلاقل، فالزهد أساس في مفهوم التصوف بل هو عينه، وقيام أمر الزهد في التصوف مبنى على أساس تأثر القلب سلباً تجاه الشيء المرغوب للنفس لا تأثر عين الشيء المزهود فيه، حتى تصبح صفة الرغبة باردة في ذات الشيء المرغوب، قال العلامة الشيخ أبو العباس أحمد زروق - رحمه الله تعالى - : الزهد في الشيء : برودته على القلب، حتى لا يعتبر في وجوده ولا في عدمه^(١) وبطبيعة الحال يكون التأثير في القلب، أما الذهب فهو الذهب لا يتغير، والمال هو المال لا يتأثر، والزهد في التصوف لا يعنى هجر الدنيا بالمرة كما يفهم البعض، لا بل هو على حد قول الشيخ أبو محمد عبد القادر، لما سئل عن الزهد في الدنيا: أخرجها من قلبك، واجعلها في يدك، فإنها لا تضر^(٢) وما زاد عن هذا الحد من آراء المتكلمين أو المتعسفين فهو لا مكان له في مدرسة التصوف .

وختاماً فإننا نصل عبر هذا البحث إلى نتائج مهمة وتوصيات ضرورية، أما النتائج فهي :

١ - أن المتبوع لحياة هؤلاء الزهاد المنظومين في عقد جامعة رسول الله ﷺ الزهدية النفيس، يدرك لأول وهلة مدى عنايتهم بالترقى الروحي ، والأخذ بأسبابه عناية طاولوا بها أعنة القلوب، وذلك لتداركهم أن الحياة الروحية المنشودة هي أصل إنسانية الإنسان، وأن الإنسان بدونها لا شيء بل هو أضل من الأنعام، لا يتمنى إلا إرضاء شهواته، ولا يعيش إلا لنزواته .

(١) العلامة الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد زروق، قواعد التصوف، بتعليق : محمد زهرى النجار، ص ٨٨، المكتبة الأزهرية، سنة ١٤١٩ هـ - سنة ١٩٩٨ م.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٨.

٢ - أن هؤلاء الأوائل عبروا بما تكونت به شخصيتهم، وتربت عليهم بصيرتهم عن الشخصية المسلمة في أسمى رخائها الإياني، وفي أرقى تأثرها الروحي، كما أنهم ترجموا عن معنى التربية الروحية للسالكين، وذلك عين الأخذ بأيدي التائهين في أحوال النفس وأهوائها، والمتخبطين في ضروب الجهالة بألوانها، بما اتسم به منهجهم من إيقاظ لما سكن في القلوب من معاني الفطرة المستقيمة، وتحريك لمجامر الأفئدة الخامدة، فتتوهج فيها حرارة القرب من الله تعالى، فتبدو معاني الروحية في لمعان القلوب وصفائها، وإدراكها لمعاني الإيمان بالله تعالى .

٣ - بيان صدق التصوف الإسلامي الحق، بعيداً عن الخرافة والبدعة، وقيام منهجه على الكتاب والسنة، وأنه جانب روحي عاطفي من جوانب الحياة الإيمانية بعيد كل البعد عن الأوهام، رفيع في مطالبه عن الخيال، ينشد سمو الفكر ونقاء الروح، وصفاء النفس، وقد غرف الزهاد الأوائل من السالكين لمنهج التصوف، والذين ذكرنا بعضاً منهم في بحثنا من معين الصدق لإثبات صحة هذا القول .

٤ - أن الحياة الروحية في ظل الزهد باتت ضرورة، وحاجة فطرية لا يستطيع الإنسان بمعناه الحقيقي أن يتجرد منها في ظل تصاعد دخان المادية بظلامه الدامس، والذي تريد به تلك المادية أن تطمس بريق الجمال الروحي لتعيش البشرية حياة جرداء من كل ما يوافق القلب، ويرهف الحس، ويأخذ بالمشاعر صوب رقائق الإيمان وحقائق الإحسان .

٥ - سلامة الفكر الصوفي الأصل من الانحراف في مهاوى البعد عن

الشريعة، وإن وجدت مخالفة من بعض الصوفية حالياً، فلا يعنى ذلك مخالفة التصوف الحق لدعائم الإسلام، فالخلل فى ذلك الصوفى لا فى عين التصوف ... فافهم .

أما التوصيات التى رأيتها فأمهمها :

١ - ضرورة إثراء الجانب العاطفى الروحى فى قلوب الناس من قبل الدعاة والعلماء، لا سيما فى عصرنا الحديث الذى اكتظ بثورات مادية متتابعة، وتقدم تقنى هائل، فمن الخطر الفادح أن يطفئ جانب المادة على جانب الروح، ففى ذلك تدمير لمطالب الفطرة، وخسف لمعانى النزاهة، وخراب لميزات الإنسان على أقرانه من المخلوقين، سواء كانت جمادات أو حيوانات .

٢ - تخصيص جبهة من العلماء المتخصصين لتقريب الفكر المتضارب على ساحة الأمة المسلمة، بالحكمة والموعظة الحسنة، دون مهاجمة أو إبداء عدا، عاملة على تنقية الأفكار من الدخيل وجمعها على فكر واحد يلتقى على الكتاب والسنة وإن تعددت الطرق شريطة سلامتها مما يعطل نصاً صحيحاً، أو يغير تشريعاً صريحاً بإضافة أو نقص .

المهم أن الكل يلتقى تحت سماء الكتاب والسنة .

٣ - الفهم بعمق لمطالب التصوف الحق السامية، وخصوصاً دراية اثساب سائر المدارس الزهدية إليه على عين الكتاب والسنة وأفعال الصحابة والتابعين، ولا مجال للنزاع حول التصوف ولا محل له، فالأمة واحدة فى عقيدتها وفى انتماها وفى عبادتها، وعليها أن تتحد لتقويم المنحرف، وإقرار المستقيم دون عصبية عمياء أو حماقة هوجاء، وكفى تفرقاً دمر وحدة أمتنا،

فلا داعى لاستفراغ أوقاتنا وإجهاد عقولنا في أمور فرعية كل راح يجتهد فيها وكل مصيب، وكل يثاب على قدر نيته، وعلينا تطويع طاقات عقولنا، وتوجيه فهمنا لصناعة غدٍ مشرق يصلح حالنا، ولا يجعل منا مطمعا لغيرنا .

وأصلى على سيدنا محمد النبى الكريم، صاحب الخلق القويم الذى لا تعرف القلوب سبيلاً للحياة إلا بحبه، ولا تدرك العقول هداية إلا بقربه، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وسائر التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وينير لنا الطريق إلى الجنة يوم اللقاء، وأن يُرضى عنا حبيبه وصفيه من خلقه نور القلوب، وهداية البصائر، خير نور أشرقت به الأكوان، قائد ركب الإنسانية إلى فجر منير يغمر أحوالها بالسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة .



الفهارس

١ - فهرس المصادر والمراجع

٢ - فهرس الموضوعات

فهرس المراجع والمصادر

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- الآداب الشرعية والمنح المرعية - ابن مفلح - القاهرة - مؤسسة قرطبة - سنة ١٩٨٧ م .
- ٣- أبو بكر الصديق، أول الخلفاء الراشدين - محمد رضا - طبعة دار الكتب العلمية - سنة ١٤١٥ هـ - سنة ١٩٩٥ م .
- ٤- الإحسان في صحيح ابن حبان - علاء الدين الفارسي - دار الرسالة ، طبعة أولى - سنة ١٤١٥ هـ - سنة ١٩٩١ م .
- ٥- إحياء علوم الدين - الإمام أبو حامد الغزالي - طبعة دار الشعب .
- ٦- أدب الدنيا والدين - الإمام الماوردي - طبعة دار الريان - طبعة أولى - سنة ١٤٠١ هـ .
- ٧- أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة - رفيق العظم - طبعة دار الرائد العربي - بيروت - سنة ١٤٠٣ هـ - سنة ١٩٨٣ م .
- ٨- الإصابة في تمييز الصحابة - الإمام أحمد بن حجر العسقلاني - طبعة دار الكتب العلمية - سنة ١٤١٥ هـ - سنة ١٩٩٥ م .
- ٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - الشيخ محمد الشنقيطي - طبعة ابن تيمية - طبعة ثانية - سنة ١٤٠٨ هـ .
- ١٠- إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان - الإمام ابن القيم - طبعة دار المعرفة - بيروت .